• الفصل الثانى •

□□ علاقات مصر بدول شمال إفريقية

قامت بين دولة المماليك بمصر ودول شمالى إفريقية علاقات يعتبر بعضها استمراراً للعلاقات التى ارتبطت بها مصر مع المغرب قبل ذلك العصر، وبعضها نتيجة لما استجد من الظروف التى أدت إلى قيام الدولة المملوكية بمصر والدولة الحفصية والزيانية والمرينية بشمالى إفريقية. وسوف لا يكون مدار البحث فى هذا الفصل عرضًا للعلاقات بين مصر وكل من تلك الدول على حدة، وإنما على أساس المشكلات العامة التى وجهت سير تلك العلاقات بين السلطنة المملوكية وبينها جميعًا، فضلا عما كان لكل منها من علاقات فردية ذات طبيعة خاصة.

الخلافة الإسلامية بين مصر وتونس

وأولى المسائل التى تبرز لمن يتصدى لبحث العلاقات بين المماليك فى مصر وبنى حفص فى تونس هى مسألة الخلافة، وهى فعلاً فى المرتبة الأولى من الناحيتين الزمنية والموضوعية. ومشكلة الخلافة فى صميمها هنا؛ نتيجة لاتخاذ الحفصيين ألقاب الخلفاء ورسومها فى تونس، فى الوقت الذى أحيا فيه سلاطين المماليك الخلافة العباسية فى مصر واحتضنوها؛ ليجعلوا منها دعامة ملكهم الجديد. وتبدأ فصول تلك المسألة من الوقت الذى فقدت فيه الخلافة العباسية هيبتها وجلالها بسيطرة العناصر المتغلبة عليها من الأتراك، مما أدى بالحكام والأمراء فى الولايات الإسلامية المختلفة إلى التنقص من شأنها، والتشكك فى قيمتها، بعد أن كانوا يتشحون بثوبها ليبغوا منه على حكمهم طابعًا شرعيًا(١).

ومن أمثلة ذلك النوع من الحكام ملوك بنى حفص بتونس، فإنهم لم يطلبوا من الخليفة العباسى تفويضًا بالحكم، بل صبت نفوسهم إلى الخلافة نفسها. على أن الثابت أنّ أول ملوك بنى حفص، أبا زكريا يحيى الأول (٦٢٥/٦٤٧هـ - ١٢٢٨/ ١٢٤٩م)

لم يتخذ لقب أمير المؤمنين، وإنما اكتفى بالتلقب بالأمير المرتضى. وقد ذكر القيروانى أن أحد الشعراء قد هتف فى حضرته بأحقيته بلقب أمير المؤمنين فزجره ولم تنل مقالته لديه قبولا. ومهما يكن من شىء.. فإن فى ذلك الحادث دلالة ضمنية على ما جاش بصدور الحفصيين منذ البداية من أطماع فى الخلافة. ولعل أبا زكريا رأى أن الظروف لم تنضج بعد لمثل ذلك المشروع، فاختار ألا يشجع عليه علنًا. بيد أن ابنه وخليفته، أبا عبد الله محمدًا، كان أكثر منه جرأة، فأقدم على اتخاذ ألقاب الخلافة والإمامة، وتسمى «بالمستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد بن الأمراء الراشدين[٢]» وبذلك كان أسبق ملوك شمالى إفريقية ـ بعد الموحدين ـ إلى اتخاذ لقب أمير المؤمنين، الذى لم يجرؤ على التلقب به حكام الدول المغربية السابقة مثل الأدارسة والأغالبة، برغم ما كان لهاتين الدولتين من قوة وخشية لدى الخلافة العباسية[٣].

وقد حذا أبو عبد الله الحفصى فى ذلك حذو سلطان الأندلس عبد الرحمن الثالث، الذى استجاز لنفسه أن يتخذ لقب أمير المؤمنين الناصر، بعد أن ظل أسلافه قانعين بلقب بنى الخلفاء[٤]. ودأب مؤرخ دولة الحفصيين ابن الخطيب، المعروف بابن قنفد[٥]، على تلقيب السلطان الحفصى بلقب «الخليفة أمير المؤمنين ابن الأمراء الراشدين» ثم أراد المستنصر الحفصى أن يرفع القواعد لخلافته فسلسل أنسابه إلى قريش، وأوصلها إلى عمر بن الخطاب، على أن هذا النسب لا صحة له فى الواقع، وقد دلل القيروانى نفسه على بطلانه.

ومن بين العوامل التى حفزت أبا عبد الله محمدًا إلى اتخاذ لقب الخلافة، ما هو راسخ فى أذهان البربر من أنه لا خير فى سلطة زمنية، لا تتخذ لها سندًا روحيًا[٦]، ولذا بادر ـ وهو الوارث الروحى لتراث الموحدين ـ إلى اتخاذ تلك الخطوة. يضاف إلى ذلك أن ما آلت إليه الدولة العباسية كان فرصة مواتية. ويؤيد ذلك مقالة القلقشندى، حيث قال: «إنما حمل المستنصرَ على ذلك أن الخلافة فى زمنه قد تعطلت فى سائر الأقطار، وذلك أن الخلافة الأموية ودعاوى بنى عبد المؤمن قد زالت عنها فى المغرب بغلبة بنى مرين عليهم، وانتزاعهم الأمر

منهم. وخلافة العبيديين (الفاطميين) قد زالت من مصر، وخلافة بنى العباس قد زالت من بغداد باستيلاء التتر عليها[٧]».

اعتراف شريف مكة بالخلافة الحفصية

وتتفق المراجع على أن الذى هيأ للحفصيين الفرصة الكبرى فى الإقدام على اتخاذ لقب الخلافة هو شريف مكة، أبو نمى بن الحسن على بن قتادة بن إدريس الحسنى. وذلك أن أبا نمى أرسل إلى أبى عبدّ الله محمد سفارة، تحمل معها البيعة الرسمية بالخلافة والاعتراف بسيادته على الأماكن المقدسة. ويقال إن الذى أقنع شريف مكة بذلك، هو أبو محمد عبد الحق بن سبعين، أحد فقهاء الأندلس المقيمين بمكة[٨]. فلما وصلت تلك السفارة إلى تونس احتفل بها أبو عبد الله محمد احتفالا مشهوداً قرئت فيه البيعة، واتخذ لقب المستنصر بالله بعد أن كان يدعى بالأمير فقط. كذلك وصلت إلى تونس حوالى ذلك الوقت أيضًا سفارتان: إحداهما من سلطان بنى مرين، والأخرى من ملك التكرور تحملان الهدايا والرسائل المعبرة عن آيات الود، وربما كان لهاتين السفارتين صلة بالخلافة الحفصية[٩].

لكن المراجع لا تجمع على تحديد التاريخ الذى تلقب فيه المستنصر بأمير المؤمنين، فالزركشى صاحب «كتاب الدولتين الموحدية والحفصية» حدد موعد وصول السفارة الملكية سنة ٦٠٠ هـ ١٢٥٢م، ثم عاد وذكر فى حوادث ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) اعتراف شريف مكة بسيادة الحفصيين مرة ثانية. أما ابن خلدون فيقول إن شريف مكة قد اعترف بخلافة الحفصيين فى ٦٥١ هـ ١٢٥٣م، وأورد أبو المحاسن ذلك فى حوادث ٦٥٢ هـ (١٢٥٤م)،[١٠] والقيروانى فى ٦٥٧ هـ[١١]، أما القلقشندى.. فيرى أن ذلك قد حدث بعد سقوط بغداد فى أيدى التتار وزوال الخلافة العباسية[١٢]. ويتضح من ذلك كله أن مركز التجمع ـ كما يقول المشتغلون بالإحصاء ـ لتاريخ هذا الحادث هو بين ٦٥٠ هـ و ٦٥٢هـ، ويتخذ Van Berchem رأيا وسطًا بين ذلك، فيقول إن أبا عبد الله المستنصر قد تلقب بالخلافة ٦٥٠ هـ ١٢٥٢م، بعد أن اعترف شريف مكة بسلطانه على بلاد الحجاز فى تلك

السنة. ثم عاد هذا الشريف فأكد تلك التبعية مرة أخرى فى ٦٥٩ - ١٢٦٠م؛ أى بعد سقوط الخلافة العباسية نهائيًا على يد التتار عام ٦٥٨ هـ ١٢٥٨م[١٣].

تلك هى الظروف التى أحاطت بالخلافة الحفصية، التى قامت بتونس قبيل إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة على يد السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٩هـ ١٢٦٠م، وقد قيل فى أسباب إحيائها أقوال متعددة[١٤]. على أن ما يهم هذا البحث منها هو ما ذكره Van Berchem من أن بيبرس أراد ـ من وراء ذلك ـ أن يمد السيادة المملوكية إلى الحجاز والأماكن المقدسة كما كان الحال أيام الأيوبيين؛ إذ ترتب على اعتراف أبى نمى بسيادة الحفصيين فقدان مصر لسيادتها الزمنية والروحية على بلاد الحجاز. والمعروف أن الدول الإسلامية التى قامت بمصر قد حرصت دائمًا على بسط نفوذها السياسى والدينى على الأماكن المقدسة، فدعى لسلاطين الدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية على منابر مكة والمدينة. فلما ألفى بيبرس أن الاعتراف بسيادة الحفصيين هناك يتعارض مع السيطرة المملوكية المنشودة، نهض إلى إحياء الخلافة؛ إذ أن الاعتقاد الراسخ فى أذهان المسلمين إذ ذاك هو أن الخليفة بالضرورة حامى الحرمين[١٥]. ومن ثم نبتت الضغينة بين بيبرس والمستنصر الحفصى من ناحية، وبينه وبين شريف مكة من الناحية الأخرى.

ومن هنا ينشأ التساؤل عن العلة التى جعلت صلة أشراف مكة بسلاطين المماليك ـ منذ عهد بيبرس ـ على هذا النحو من الارتياب وقلة الاكتراث. وليس فى المراجع تفسير واضح لهذه النقطة إلا ما انفرد به ابن خلدون من قوله إن شرفاء مكة قد اتجهوا إلى الحفصى، عندما غاظهم بيبرس واشتد فى معاملتهم، إلا أنه لم يبين نوع الإساءة التى ارتكبها السلطان بإزائهم[١٦]. والواقع أن شريف مكة قد استشعر بما للسيادة المصرية عليه من ظل ثقيل، فلجأ إلى سلطة زمنية أخرى يعترف بها ولا ترهقه من أمرها عنتا. ومن الأدلة القريبة على ذلك ميل أشراف مكة إلى بنى رسول باليمن، أكثر من ميلهم إلى سلاطين الأيوبيين بمصر. فكانوا يستنجدون بهم ضد تدخل بنى أيوب، ويلوذون ببلادهم كلما اضطروا إلى ذلك. ومما يلقى ضوءًا على هذا الموضوع أيضًا ما ذكره المقريزى، من أنه كان يقال (عن

أبى نمى) لولا أنه زيدى لصلح للخلافة لحسن صفاته[١٧]. ولعل بيبرس خشى من طموح أبى نمى إلى الخلافة ومعارضة الدولة المملوكية السنية؛ خصوصًا وأن سلاطينها فى نظره إنما هم أرقاء بيعوا فى الأسواق، فى حين أنه هو شريف عالى النسب[١٨].

وإزاء هذا الموقف سعى بيبرس إلى توطيد سلطانه الفعلى على الحجاز. ودلائل ذلك متوافرة، فقد خطب باسمه فى مكة ٦٦٣ هـ ٢٣٦٣م؛ أى بعد ثلاث سنوات من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة، على أنه يظهر أن العلاقات تكدرت بين الجانبين مرة أخرى، ثم صفت وتم الاتفاق فى ٦٦٧ هـ ١٢٦٨م بين أبى نمى وعمر الشريف إدريس، على أن يخطب باسم بيبرس فى الحرم والمشاعر، وأن ضرب السكة باسمه. كما حج السلطان فى تلك السنة، وعلق كسوة البيت بيده[١٩]. وهكذا ظلت السيادة المملوكية معترفًا بها على الحجاز، رغم تلك البيعة التى أرسلها شريف مكة إلى المستنصر الحفصى.

وقد سار قلاون على سياسة بيبرس فى علاقته بشريف مكة، فحاربه من أجل مصالح الحجاج المصريين وأرغمه على الإذعان لمطالبه. وكان من سياسة قلاون فى ذلك الصدد أيضًا أنه أكثر من بناء المحطات وأسباب الراحة فى الطريق إلى بيت المقدس؛ ليرغب المسلمين فى الحج إليه. ولم يكن الدافع لقلاون إلى تلك المنشآت دينيًا بحتًا، بل إن فيها تلويحًا سياسيًا لشريف مكة بتحويل أنظار المسلمين عن الحجاز؛ فيحرم بذلك مما يسير إليه من القطائع المقررة على الحجاج فى المواسم. ولعل تلك الفكرة مشابهة لما حاول أن يلجأ إليه الأمويون فى نزاعهم مع ابن الزبير، حين أرادوا تحويل أنظار المسلمين من مكة إلى دمشق[٢٠]. ويضاف إلى ذلك كله ـ وهو من قبيل الاستنتاج ـ أن تلقب أول خليفة عباسى فى القاهرة بلقب المستنصر لم يكن محض مصادفة، وإنما فيه دلالة صريحة على موقف مصر من الخلافة الحفصية، التى كان أول خلفائها قد اتخذ ذلك اللقب نفسه.

موقف مصر من الخلافة الحفصية

وهنا ينبغى الإجابة عن السؤال الذى يعرض كنتيجة حتمية لهذا الموضوع،

وهو: كيف كان وقع خلافة الحفصيين بمصر ؟ وفيما كتب بعض المؤرخين القريبى العهد ما يفى بالجواب. قال العمرى: «ملك تونس لا يدعى إلا الخلافة ويخاطب بأمير المؤمنين فى بلاده(٢١)». وفى هذه العبارة ما يوضح مدى الاستخفاف بما اصطنعه الحفصى لنفسه، كما يفهم من قوله ويخاطب بأمير المؤمنين فى بلاده. وهنا يعنى أن خلافته ليست بذات بال أو خطر فى العالم الإسلامى، وأنها مقصورة على بلاده فحسب. وقد أشار أبو الفدا صاحب حماة إلى تلك المسألة فى لهجة مشابهة للعمرى(٢٢)، وكلها تشعر بالسخرية والتشكك. ولأبى الفدا سابقة فى إبراز رأيه، حين شكك فى نسب المستنصر والحاكم الخليفتين اللذين أقامهما بيبرس فى الخلافة بالقاهرة(٢٣). أما القلقشندى.. فقد شكك فى دعوى انتساب الحفصيين لقريش، والارتقاء بنسبهم إلى عمر بن الخطاب، فذكر أنهم ليسوا من العرب فى شىء، وهوّن من شأن خلافتهم، وقال إنما يلقب صاحب تونس بلقب الخلافة الخاص(٢٤). كذلك يتبين القارئ من رواية ابن تغرى بردى غمزا واضحًا، حيث قال: «وفى ٦٥٢ هـ وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء إنسان على إفريقية، وادعى أنه خليفة، وتلقب بالمستنصر، وخطب له فى تلك النواحى»(٢٥). ومما ينم عن نفس الروح التى كتب بها العمرى بصدد اتخاذ الحفصى للقب الخلافة، اقتصارها على تلك النواحى، وفى لفظ إنسان الوارد بتلك العبارة سخرية بالغة.

وينعكس موقف الدولة المملوكية بإزاء الخلافة الحفصية أيضًا فى مكاتبات ديوان الإنشاء، الذى يقوم فى الدولة المملوكية بدور وزارة الخارجية فى الوقت الحاضر. فبالنظر إلى مصطلح المكاتبات بين سلاطين المماليك وملوك بنى حفص.. يتضح أن ديوان الإنشاء لم يعترف فى رسوم مكاتباته إلى الحفصيين بالخلافة أو لقب أمير المؤمنين. وفيما أورده العمرى ـ وهو كاتب السر بديوان الإنشاء فى عصر الناصر ـ من المكاتبة إليه بلقب صاحب تونس ـ فحسب ـ دليل على ذلك. ولا عبرة بوصفه فى تلك المكاتبات بأنه «مكان الإمامة القرشية، وبقية السلالة

الطاهرة الزكية، حضرة أمير المسلمين، وزعيم الموحدين، والقائم فى مصالح الدنيا والدين» فإن شيئا من تلك الأوصاف لا يعدو أن يكون إطراء للحفصيين.

من كل هذا يتضح أن السلطنة المملوكية كانت كثيرة الاعتزاز بالخلافة، شديدة الحرص على تدعيمها، وذلك برغم ما أضحى عليه نفوذ الخلفاء من تضاؤل إلى جانب سطوة السلاطين وبأسهم، فلم تعترف السلطنة بالخلافة العباسية فى مصر إلا لتخلع منها على نفسها ثوب العظمة والبهاء[٢٦]. وأما الخليفة الحفصى فهو أمير المسلمين وليس بأمير المؤمنين. واللقب الأول دون الثانى فى المرتبة، فأمير المؤمنين هو الخليفة الشرعى العام، أما أمير المسلمين فلقب يتسم به أمير أو حاكم تحت كنف الخلافة العامة. ومن قبيل التمثيل لذلك ملوك المرابطين بالمغرب، الذين اتخذوا لقب أمير المسلمين بصفتهم أمراء بارزين منضوين تحت لواء الخلافة العباسية فى بغداد[٢٧].

وقد انفرد ابن خلدون بإيراد ذكر لمراسلة بين صلاح الدين الأيوبى وسلطان الموحدين يعقوب المنصور من بنى عبد المؤمن، وهى تلقى ضوءًا على هذا الموضوع، إذ راسل صلاح الدين السلطان الحفصى يعقوب المنصور، طالبًا منه إنجاده بأسطول المغرب؛ لقطع مدد الفرنج عن سواحل الشام وإزعاجهم بها، وأوفد لذلك مبعوثه عبد الرحمن بن منقذ من أمراء الشام. ولكن المنصور لم يجبه إلى طلبه لسبب واحد، وهو عدم مخاطبته فى الكتاب باسم «أمير المؤمنين»، وقد منع صلاح الدين من ذلك كاتبه القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى، الذى أقنعه بأنه ما دامت تقام الدعوة للخليفة العباسى بمصر، فلا معنى مطلقًا للكتابة إلى سلطان الموحدين بلقب أمير المؤمنين «إذ أن الخلافة ليست لقبًا فقط، وإنما هى لصاحب العصبية القائم عليها بالمشدة والحماية[٢٨]».

وليس فى القلقشندى إلا رسالة واحدة بعث بها الظاهر برقوق إلى المتوكل على الله أبى عبد الله محمد بن أبى يحيى أبى بكر الحفصى، خاطبه فيها بلقب أمير المؤمنين. وإن لم تكن الصياغة قد أخذت اسم المؤمنين بدل المسلمين من جراء تحريف النساخ، فليس لها من تفسير واضح سوى أن الخلافة العباسية

بالقاهرة مالت عن سلاطين المماليك بل، فكر بعض الخلفاء فى ارتقاء السلطنة كما حدث فعلا، ولعل اعتراف برقوق بالخلافة الحفصية كان من قبيل النكاية بالخلافة العباسية[٢٩].

بنو زيان والخلافة

أما بنو عبد الواد أو بنو زيان أو ملوك تلمسان فلم يتجه تفكير واحد منهم إلى اتخاذ لقب أمير المؤمنين، وإنما اكتفوا بلقب أمير المسلمين. ولعل طاقة هذه الدولة ووضعها الجغرافى جعل من العسير على ملوكها أن يسعوا إلى ما سعى إليه ملوك بنى حفص بتونس، وكذلك الأمر فيما يخص ملوك بنى مرين. فليس من بين الدعائم التى ارتكزت عليها دولتهم سند شرعى أو روحى لاتخاذ رسوم الخلافة كما فعل بنو حفص. بل إن العكس صحيح، فبنو مرين هم الذين أدالوا ملك الموحدين، وقضوا عليه القضاء الأخير. ولذلك اكتفى الأوائل من بنى مرين بلقب أمير المسلمين حتى أول عصر أبى فارس عنان (٧٤٩/٧٥٩ هـ - ١٣٤٨ /١٣٥٨م). وليس ثمة شك فى ذلك فإن مؤرخ دولتهم وولى نعمتهم ابن أبى زرع يلقبهم بهذا اللقب دائمًا[٣٠].

على أن ملوك بنى مرين من ناحية أخرى قد دار بخلدهم منذ البداية مشروع الخلافة على النحو الذى اتخذه الحفصيون وتوسلوا إلى ذلك بوسائلهم أيضًا، فلجئوا إلى أشراف مكة، ووصلتهم فى سنة ٧٠٣ هـ سفارة من مكة، على رأسها لبيدة[٣١] بن أبى نمى، فبالغ السلطان المرينى أبو يعقوب يوسف (٦٨٥/٧٠٦ هـ - ١٢٨٦/١٣٠٦م) فى تكريمه، وسمح له بالتطواف فى أرجاء المغرب، كما حث عماله على المبالغة فى الحفاوة به[٣٢]. وفى سنة ٧٠٥ هـ - ١٣٠٥م وصلت إلى هذا السلطان المرينى بيعة شرفاء مكة، ومعها هدية من ضمنها ثوب من كسوة الكعبة اعتز به المرينى كثيراً، وأصبح يستبطنه بين ثيابه فى الجمع والأعياد. ويعلل ابن خلدون بيعة أشراف مكة هذه بأسباب مشابهة لتلك التى حدثت من قبل بشريف مكة أبى نمى إلى بيعة الحفصيين[٣٣]. وما حصل هو أن الأمير بيبرس

الجاشنكير نائب السلطنة فى عهد الناصر محمد قصد إلى الحج، وانتهز فرصة الخلاف القائم بين أبناء أبى نمى لإظهار نفوذه، فقبض على رمينه وحميضه وبعث بهما إلى مصر سنة ٦٧٢ هـ ـ ١٢٧٣ م، فغاظ ذلك أشراف مكة، ولجئوا إلى النكاية بالسلطنة المملوكية على النحو المتقدم(٣٤).

ومع هذا كله فالثابت أن ملوك بنى مرين لم يتخذوا لقب أمير المؤمنين إلا منذ عهد السلطان أبى عنان فارس المتوكل على الله. والأدلة على ذلك متواترة، فقد لقبه ابن بطوطة «بأمير المومنين ناصر الدين المتوكل على رب العالمين»(٣٥) وقد عثر على عملة له نقش عليها «ضرب بمدينة فاس عن أمر عبد الله فارس أمير المؤمنين»(٣٦) على أن ثمة مسألتين موجبتين للالتفات فى هذا الصدد: أولاهما دعاء ابن أبى زرع فى فاتحة كتابه للسلطان أبى سعيد عثمان المرينى (٧١٠/ ٧٣٩ هـ ـ ١٣١٠/ ١٣٣١م) إذ قال وفتح له وعلى يده الفتح المبين، وجعل الخلافة كلمة قائمة فى عقبه إلى يوم الدين، ولازال للخلافة يحيى آثارها، ويجدد إظهارها، ويعلى منارها، ويجلو أنوارها»(٣٧). ومن ذلك يتضح أن السلطان المرينى اتخذ لقب الخلافة لنفسه قبل أبى عنان. والمسألة الثانية ما ذكره العمرى فى التعريف بصدد المكاتبة إلى سلطان المغرب الأقصى أبى الحسن على المرينى، جاء فيها أن المصطلح المملوكى قد جرى بتلقيبه «الملك السيد الأجل سلطان الإسلام والمسلمين... المؤيد على أعداء الله، **أمير المؤمنين** قائد الموحدين، وعند ذكر آبائه يقال فى كل منهم **أمير المسلمين**(٣٨)...

ويتبين من ذلك أن ديوان الإنشاء بمصر لقب أبا الحسن على ـ وهو والد أبى فارس عنان ـ بلقب أمير المؤمنين فى الوقت الذى لقب أباءه بلقب أمير المسلمين. والأمر الذى يستثير الدهشة هنا أن ديوان الإنشاء بمصر يلقب أبا الحسن على بأمير المؤمنين، فى حين أنه لم يتخذ هذا اللقب فى بلاده طول حياته. وإذا كان الأمر كذلك وليس تصحيفًا من النساخ ـ كما يرجح Van Berchem ـ فليس له من تعليل مقبول، سوى ما وصل إليه سلطان بنى مرين أبو الحسن على من القوة والهيبة، خصوصًا بعد أن استولى على المغرب الأوسط، وزحف على تونس فأصبح بذلك

«ملك المغرب على الحقيقة والإطلاق» على حد قول ابن خلدون، مما جعل ديوان الإنشاء يخلع عليه لقب أمير المؤمنين دون أن يخلعه هو على نفسه.

ومهما يكن فإنه قد جاء بالقلقشندى فى صدر المكاتبة التى أسلمها أبو الحسن المرينى إلى الملك الناصر سنة ٧٣٨ هـ - ١٣٣٧ م عقب استيلائه على تلمسان، ما يأتى «من عبد الله **أمير المسلمين**، وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، مالك العدوتين، ملك البرين، أبى الحسن بن مولانا أمير المسلمين»(٣٩). وأكثر من هذا فإن رسم المكاتبة الذى ذكره التعريف ونقله القلقشندى بلقب صاحب المغرب الأقصى بلقب أمير المسلمين. وفى رمضان ٧٤٥ هـ - ٣٤٤ أرسل سلطان مصر إلى المرينى رسالة، جاءت خلوا حتى من لقب أمير المسلمين الذى لقب به أبوه عثمان وجده يعقوب. وليس هذا الإغفال مجرد مصادفة، بل ربما كان بسبب عامل أدى إلى سوء التفاهم بين الطرفين(٤٠).

مصر وتونس أثناء الحملة الصليبية الثامنة

هذا ما كان من أمر العلاقات بين الدولة المملوكية وبلاد المغرب كلها بصدد المشكلة، التى ترتبت على كارثة الخلافة العباسية ببغداد. على أن العلاقات بين سلاطين المماليك وملوك شمالى أفريقية، لم تقتصر على تلك المشكلة. ففى سنة ١٢٦٥م تحركت فى نفس لويس التاسع ملك فرنسا، الرغبة إلى معاودة الكرة على مصر، وحفزه إلى ذلك قضية سقوط أنطاكية فى يد السلطان بيبرس سنة ١٢٦٨م(٤١) فبدأ بإعداد حملته فى صيف ١٢٧٠م، ولكن Charles d' Atnjou أخاه، ملك الصقليتين، استطاع أن يحول وجهتها صوب تونس لأغراض خاصة بمملكته، إذ تأثرت هذه المملكة من حركة القرصنة التى شنها بعض بحارة تونس، وهذا فضلا عن رغبته فى إجبار ملك تونس على دفع جزية سنوية له(٤٢). ومن بين الأسانيد التى اعتمد عليها هو وأنصاره فى تغيير هدف الحملة، أن الاستيلاء على تونس يفتح الطريق لمصر، وأن صاحب تونس حليف للسلطان المملوكى(٤٣).

فلما بلغت أنباء تحول الحملة إلى تونس بادر الحفصى إلى إرسال سفرائه

لمفاوضة لويس التاسع، ويقال إنهم قدموا للملك مبلغًا من المال أخذه منهم، وقد وافق ذلك وصول رسول السلطان المملوكي إلى فرنسا. ويظهر من قبيل الاستنتاج أنه جاء لأغراض مشابهة لما جاءت إليه السفارة التونسية؛ إذ اعتقد بيبرس أن الحملة متجهة إلى مصر لا محالة. والأدلة على ذلك متوافرة فيما قام به بيبرس من الاستعدادات الحربية والتحصينات المختلفة وحركات الجيوش والسفن فى ثغور مصر والشام(٤٤). ويقال إن سفيرَ مصر قد أنشد أمام الملك شعر ابن مطروح الذى قاله فى مناسبة أسر لويس بدار ابن لقمان، فلم يعره الملك أذنا مصغية، وأصر على عزمه فى إعداد حملته الصليبية(٤٥).

وأخيرًا وصلت حملة لويس التاسع إلى الشواطئ التونسية فى ٦٦٨هـ - ١٢٧٠م ونزلت بقرطاجنة، ثم تقدمت إلى تونس نفسها، وأخذ المستنصر الحفصى يستعد لمدافعتها، وكتب إلى ملوك الدول الإسلامية يطلب العون، فوصلته الجيوش من مختلف أنحاء المغرب. وهنا يحق التساؤل عن موقف مصر التى كانت تخشى عادية تلك الحملة، والتى أعدت لها ما استطاعت من قوة واحتياط، على أن المراجع لا تنص صراحة على أن الحفصى كتب لبيبرس فيمن كتب لهم من ملوك الدول الإسلامية المجاورة. ولكن الثابت أن مصر رأت فى تونس الخط الدفاعى الأول لها، ولذلك بادر بيبرس بالكتابة إلى الحفصى يخبره بعزمه على إرسال ما يستطيع من عسكره، كما كتب إلى عربان برقة(٤٦) فى محرم ٦٦٩ هـ - ١٢٧٠ م، يطلب منهم المسارعة لنجدة المستنصر، وتمهيد الطريق للعساكر المصرية بحفر الآبار فى الطرقات.

وقد تم فعلا شطر كبير من الخطة التى وضعها بيبرس لمؤازرة الحفصى فى المحنة المشتركة، فذهب كثير من العربان للانضمام إلى جيش تونس، كما حفرت الآبار التى رسم السلطان بحفرها(٤٧). ولم يمض على ذلك شهر حتى بلغت بيبرس الأنباء برحيل الحملة الصليبية وخيبة فألها فيما قصدت إليه، بسبب موت الملك لويس فجأة، قبل أن تقوم الحملة بعمل حربى حاسم، وعزم أخيه Charles d'Atnjou ملك صقلية على اقتناص الفرصة لاستغلال الحملة فى تحقيق مآربه

الخاصة، فاستدفع المستنصر مبلغًا كبيرًا من المال كغرامة حربية، واستأداه جزية سنوية تدفع إلى خزانة مملكته. فلما وصلت البشرى[٤٨] إلى بيبرس بذلك النبأ عدل بالطبع عن إرسال الحملة التى شرع فى تجهيزها لنجدة الحفصى.

وقد ذكر ابن أبى الفضائل أن السلطان بيبرس كتب بالبشارة إلى سائر البلاد ابتهاجًا بالخلاص من هذا المأزق، ومن الجائز أن يكون قد كتب للحفصى فيمن كتب لهم. غير أنه ما لبث أن اتخذ من هذه الحملة ذاتها وسيلة للتنقص من قدر المستنصر والتهوين من مكانته. وذلك أنه فى ربيع الأول ٦٧٠ هـ ـ ١٢٧١ م قدم رسول صاحب تونس، يحمل هدية وكتابًا للسلطان «ووجد أن فى مكاتبته تقصيرًا فى المخاطبة»، ولم يزد المقريزى هذه إيضاحًا. ولعل المقصود بهذه العبارة أن الحفصى قد انحرف عامدًا عما ينبغى أن يلتزمه فى رسم المكاتبة إلى سلطان مصر. أما الهدية فقد أمر السلطان بتفريقها على الأمراء، وليس فى هذا العمل منقصة للحفصى؛ إذ جرت عادة السلاطين أن ينعموا على الأمراء بنصيب مما يصل إليهم من هدايا الملوك، لكن الاستخفاف يبدو فى أن السلطان لم يحتجز لنفسه منها شيئًا البتة.

وأما الكتاب فقد رد عليه بيبرس ردا لاذعاً، «فعيَّر الحفصى بالتظاهر بالمنكرات، واستخدام الفرنج، وكونه لم يخرج إلى الفرنج لما نازلوه وكان مستخفيًا وقيل له: مثلك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين، وخوف وأنذر»[٤٩] وقصد بيبرس بعدم خروج المستنصر إلى الفرنج ما عرف عنه من عدم اشتراكه بنفسه فى الحرب الصليبية الثامنة، كما فعل بيبرس فى حروبه ضد الصليبيين أو التتار، إنما وكل الحفصى أمر الحرب إلى سبعة من قواده[٥٠]. ويستنتج من كلام ابن خلدون أن المستنصر كان متخوفًا من الحملة الصليبية، فالتزم القعود بإيوانه مع بطانته، فى الوقت الذى هب فيه الجيش يقاوم المحاولة الفرنسية. وأدى ذلك إلى أن ظن أهل تونس الظنون بسلطانهم، واتهموه برغبته فى التحول عن العاصمة إلى القيروان نجاة بنفسه[٥١]. وأما ما عناه بيبرس من مقالته للحفصى «مثلك لايصلح أن يلى أمر المسلمين» فهى دون شك رد على دعوى الحفصى بالخلافة واتخاذ رسومها والتلقب بألقابها.

اهتمام مصر بمجرى الأحداث فى المغرب

وقد ظل اهتمام السلطنة بمجرى الحوادث ببلاد المغرب باديًا خلال السنين؛ لأن مصر غدت منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى محور الارتكاز السياسى بين المسلمين شرقًا وغربًا، وصارت القاهرة مقر الخلافة العباسية الجديدة. وأضحت السلطنة المملوكية تحتل مكان الصدارة بين دول العالم الإسلامى، كما أضحى سلاطينها يفرضون لأنفسهم مقامًا ممتازًا بين بقية ملوك المسلمين(٥٢).

لذلك دأب سلاطين المماليك على مراقبة الحوادث فى المغرب، وتدل المعلومات المستفيضة التى سجلها العمرى فى مسالك الأبصار عن أحوال تلك البلاد على مدى هذا الاهتمام. وتتضح تلك العناية جلية إذا قورن ما ورد من أخبارها بما ورد عن أخبار دولة إسلامية أخرى، كدولة بنى نصر فى غرناطة مثلا(٥٣). كذلك حرص ديوان الإنشاء بمصر على إبلاغ دول شمالى إفريقية بما يجرى فى مصر من الأحداث الداخلية أو الخارجية، مثل: أخبار تولية السلاطين ووفاتهم وحروبهم. وظل ملوك المغرب يستجيبون لذلك بالمشاركة الوجدانية من تهنئة أو تشجيع أو تعزية(٥٤).

التقدير المتبادل بين مصر المملوكية وبنى مرين فى المغرب الأقصى

والواقع أنه لم يكن بين الحفصيين والمماليك أمر يكدر صفو العلائق بينهما، سوى دعوى الحفصيين للخلافة، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. أما الدولة الزيانية بتلمسان، فقد كان ثمة عامل يدفعها إلى اضطغان الحقد للسلطنة المملوكية، وذلكم هو ما بين المماليك وبنى مرين فى المغرب الأقصى من وشائج الود والقربى، إذ فطن سلاطين المماليك إلى أن بنى مرين هم أصحاب السطوة الكبرى فى بلاد المغرب بأسرها، فبادلوهم إجلالاً بإجلال وتقديراً بتقدير، كما حرصوا على إظهار ذلك نحوهم، ولو كان فيه ما يسىء إلى الزيانيين، على أن هؤلاء قد تطلعوا إلى سلاطين المماليك؛ ليتخذوا منهم سنداً يشد أزرهم ضد أطماع بنى مرين بالذات.

وليس هناك ما يحدد تاريخ بداية النفور بينهم وبين السلطنة المملوكية سوى أنه حدث فى ٧٠٥ هـ ـ ١٣٠٥ م ما أفصح عن شىء من الحقد المكتوم. ففى تلك السنة أرسل الناصر محمد بن قلاوون سفارة إلى سلطان المغرب أبى يعقوب يوسف (٦٨٥/٧١٦ ـ ١٢٥٨/١٣٠٦م)، وبالغ الناصر فى إعداد هديته من طرف مصر وثيابها، وما يستغرب من الحيوان من فيلة وزراف وغير ذلك، وترأس هذه السفارة أيدغدى التليلى. فلما وصلت إلى تونس ـ وهى خاضعة لبنى مرين وقتذاك ـ احتفل بها السلطان احتفالا زائدًا، وجمع الناس لمشاهدتها، وأكرم أمراء المماليك بالغ الإكرام، وبعثهم إلى أطراف المغرب لمشاهدة نواحيه، كما هى عادة سلاطين بنى مرين فى إكرام من يقدم إليهم. وفى غضون ذلك توفى السلطان المرينى فأحسن خلفه أبو ثابت عامر (٧٠٦/٧٠٨ هـ ـ ١٣٠٦/١٣٠٨م) بدوره وفادة المماليك حتى قفلوا راجعين إلى مصر ٧٠٧ هـ ١٣٠٧م، فلما انتهوا إلى مملكة تلمسان سطا عليهم الأعراب القاطنون على تخوم تلك المملكة، ونهبوا ما معهم من الهدايا والتحف، تنفيذا لدسيسة من صاحب تلمسان أبى حموموسى (٧٠٧/٧١٨ هـ ـ ١٣٠٧/١٣١٨) الذى كان أعضاء السفارة قد طلبوا منه حرسًا يخفرهم حتى تخوم بلاده فلم يتلفت إليهم، بل بيت تلك المؤامرة كيدًا وتشفيًا من صاحب المغرب الأقصى؛ لما هو معروف بينهما من الإحن والعداوة، وقصد بذلك أن يسىء إلى سمعة بنى مرين بالقاهرة(٥٥).

وقد تأثر الناصر من فعلة صاحب تلمسان، فأرسل له مع بعض الحاج من المغرب الأوسط كتاب عتاب وتأنيب مع هدية من كوبين من دهن البلسان،(٥٦) وخمسة من المماليك وسلاحهم خمسة قسى. وسرعان ما أدرك التلمسانى أن الهدية التى وصلته لا تتكافأ مع ما أهدى سلفًا إلى صاحب فاس، فاستدعى على الفور القاضى محمد بن هدية، وقال له اكتب الآن إلى الملك الناصر كما أقول لك، ولا تحرف كلمة عن موضعها إلا ما تقتضيه صناعة الإعراب، وقل له. . أما عتابك عن شأن الرسل وما أصابهم فى طريقهم، فقد حضروا عندى (خالية) ورأيتهم مخاوف بلادنا، وما فيها من غوائل الأعراب، فكان جوابهم إنا جئنا من

من عند ملك المغرب، فكيف نخاف، مغترين بشأنه (فى الأصل بشأنهم) يحسبون أن أمره نافذ فى أعراب فلاتنا. وأما الهدية فترد عليك، أما دهن البلسان فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت، وحسبنا به دهنًا، وأما المماليك الرماة فقد افتتحنا بهم أشبيليه[٥٧]، وصرناهم إليك لتفتح بهم بغداد والسلام[٥٨]. ومنذ ذلك الحين لم تذهب سفارات من مصر إلى بلاد المغرب، وطالما أوفد ملوك المغرب سفراء من قبلهم، فلم يستجب سلاطين المماليك لذلك إلا بالرد الكتابى فحسب خشية من أن يحدث الأعراب ما أحدثوا بالسفارة السالفة من أذى.

وهكذا كان رجحان كفة المرينى فى نظر الدولة المملوكية سببًا فى قلة المكاتبة إلى صاحب تلمسان ومدعاة لتبرمه. وتتضح علائم السخط فى الرسالة التى بعث بها عبد الرحمن بن أبى يغمراسن الزيانى إلى الناصر ٧٣٥ هـ ١٣٢٤م، جاء فيها: «وقد وجب شكركم علينا من كل الجهات، واتصلت المحبة والمودة طول الحياة، غير أن فى قلوبنا شيئا من ميلكم إلى غيرنا[٥٩] واستئناسكم، وليس بيننا وبين بلادكم من يخشى والحمد لله من كيده، ولا يبالى بهزله وجده[٦٠]. وقد توجه إلى بابكم الشريف أبو زكريا يحيى وقد شافهناه بما يلقيه إلى ذلك المقام الشريف من تقرير الود والإخاء، والمحبة والصفاء.. وغرضنا أن تعرِّفوه ما يصلح لذلكم المقام الشريف مما فى بلادنا»[٦١].

ويظهر أن التلمسانى أراد أن يكفر عما وقع فيه سلفه من خطأ. إلا أن أبا الحسن المرينى لم يمهل هذه الدولة، فأغار عليها فى عهد السلطان أبى تاشفين عبد الرحمن الأول واستولى عليها، وقتل هذا السلطان سنة ٧٣٧ هـ - ١٢٣٦م. وكتب المرينى إلى الناصر محمد فى رمضان سنة ٧٣٨ هـ - ١٣٣٧م عقب استيلائه على تلمسان يخبره بمبررات هذا الغزو.

ومن تلك الرسالة يتضح كثير من الظروف السياسية التى اضطرب بها المغرب وقتذاك. جاء فيها: «ولما سول الشيطان لهذا العاق (صاحب تلمسان أبى تاشفين) قتل والده، والاستيلاء على طارفه وتالده، وباطن جماعة من عرب أفريقية

المفسدين، وأقام على بجاية عشرين سنة يشد عليها الحصار، ويشن على أحواز تونس الغار». وفى غضون ذلك استنجد صاحب غرناطة بالمرينى فأنجده بأربعة آلاف على رأسهم ابنه عبد الواحد. وفى تلك الأثناء أيضًا ثار أحد إخوة المرينى واعتصم بسجلماسه، وغدا هو وصاحبُ تلمسان إلبا واحدًا على أبى الحسن. وظن التلمسانى أن الفرصة مواتية للتمادى فى العصيان، فلم يجد أبو الحسن بعد فراغه من أمر الأندلس بدا من مهاجمته، فسلط عليه جيوشه ومجانيقه حتى قضى عليه. وعلى حد ما جاء فى الرسالة عن لسان المرينى إذ قال «وكمل لنا - والحمد لله - بالاستيلاء على هذا القطر (بجاية) جميع البلاد الداخلة فى ولاية بنى عبد الواد، ونسخت منها دولتهم، ومحيت من صحيفتها دعوتهم»(٦٢).

وجاء رد الناصر على تلك الرسالة متضمنًا الموافقة على ما قام به المرينى من فتوح، وطلب إليه موافاته دومًا بأنبائه، مما ينبئ عن حرص سلاطين المماليك على إظهار مقام دولتهم فى العالم الإسلامى، فقال «كان أخونا أمير المسلمين وسلطان الموحدين والدك الشهيد - قدس الله سره - فى كل آونة يخبرنا بمثل هذا الفتح.. ونحن نحمد الله الذى أقام المقام مقام أبيه لنصرة الإسلام وأبقى، وصدق بما تنشئه من حسن أفعالك وسلوك آرائك أنك أبو الحسن، وأن أباك أبو سعيد حقا»(٦٣). ثم أعقب الناصر ذلك بإخباره بما انعقد للجيش المملوكى من نصر فى تلك السنين، وخاصة فى تأديبه للمالك ليفون(٦٤) صاحب سبس (إرمينيا الصغرى) الذى كان قد نكث بما ارتبط به مع السلطنة المملوكية من عهد على دفع جزية سنوية.

ويتضح مما تقدم من إشارات واضحة أن السلطنة المملوكية ظلت تعتمد على دولة بنى مرين، باعتبارها أكبر دول المغرب، بل إن الناصر محمدًا قد حسب لهذه الدوْلة حسابًا خاصًا فى عهد أبى الحسن على. وهناك من القرائن ما يشعر بذلك، فقد قال أبو الفدا فى هذا الصدد «وقد أوجس المصريون من ذلك خيفة، فإن بعض الأمراء المصريين الأذكياء أخبرنى أن الملك الناصر محمدًا كان يقول: رأيت فى بعض الملاحم أن المغاربة تملك مصر، وتبيع أولاد الترك فى سويقة

مازن»[٦٥]. والواقع أن سلطان بنى مرين كان حقيقًا بالتقدير والاحترام لسبب آخر، وهو أن السلطنة المملوكية رأت - رغم وجود الحفصيين - أن بنى مرين هم حملة الرسالة الحقيقية للموحدين فى حماية الإسلام بالمغرب، ورد عادية إسبانيا المسيحية، وأنهم قد حالفوا بنى نصر ملوك غرناطة حلفًا دائمًا، وشاركوا فى حروبهم لمدافعة التيار المسيحى فى إسبانيا.

وتجلى اغتباط سلاطين مصر بموقف بنى مرين فى تلك الحروب فيما كان يبعثون به إليهم من مكاتبات. ومن أمثلة ذلك الرسالة التى بعث بها الناصر محمد إلى أبى الحسن المرينى، والتى سبقت الإشارة إليها. وقد تعدى التقدير هذا الحد فى نظر ديوان الإنشاء بمصر حتى أدرج ملك بنى نصر تحت لواء المرينيين، فذكر العمرى فى التعريف بصاحب بر العدوة أبى الحسن على المرينى أن ملك الاندلس[٦٦]، قد دان له بالطاعة «وهو اليوم ملك ملوك المغرب وموقد نيران الحرب»[٦٧]. ولهذا امتازت المكاتبة إليه أيضًا عن سواه من ملوك المغرب بالإكثار من الألقاب والصفات، التى تتصل بجهاد أعداء الدين فهو «المجاهد فى الله، الغالب بنصر الله، المؤيد على أعداء الله، مجهز الغزاة والمجاهدين، مجند الجنود، عاقد البنود، مالئ صدور البرار والبحار، مزعزع أسرة الكفار»[٦٨].

وإذا كانت الدولة المملوكية قد علقت الآمال على بنى مرين لحماية الإسلام ضد تيار المسيحية بالأندلس.. فإن موقفها لم يتعد هذه الناحية السلبية من المشاطرة. فعندما حزب الأمر واشتدت الضائقة بمملكة غرناطة لم تمدد لها يدا. وكل ما فعله الأشرف قايتباى سنة ٨٩٢ هـ - ١٤٨٦ م عندما استصرخت به أن بعث إلى رجال الدين بكنيسة القيامة ببيت المقدس، يطلب منهم إرسال سفير من قِبَلِهم إلى صاحب نابولى؛ ليتوسط لدى صاحب إشبيليه فى رفع الحصار عن غرناطة، وذهب السفير فعلا إلى ملك نابولى إلا أن ذلك المسعى لم يؤد إلى نتيجة تذكر[٦٩].

ولم تكن سياسة الغورى أكثر جرأة من سياسة سلفه فى هذا الباب، فإنه لما سقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ م وبدأ فرديناند وإيزابلا المأساة المروعة التى تمثلت

فصولها فى اضطهاد المسلمين.. سعت الدول الإسلامية بشمالى إفريقية مرة أخرى إلى مصر، وانتظرت الخير من السلطان الجديد قنصوه الغورى الذى اعتلى العرش سنة ٩٠٦ هـ - ١٥٠١م، فطلبت منه طرد التجار المسيحيين من بلاد السلطنة المملوكية وعرقلة المسيحيين عامة فى زيارة بيت المقدس. ولكن الغورى لم يغير من سياسته نحو المسيحيين أحيانًا، سوى ما كان يخشاه من مشروعات البرتغاليين للقضاء على التجارة المملوكية(٧٠).

على أن المغاربة من ناحيتهم قد أثروا أحيانًا فى بعض جوانب من صميم السياسة الداخلية لدولة المماليك؛ إذ نبت من جراء الاحتكاك بين بنى مرين ونصارى إسبانيا كره وبغض للمسيحيين عمومًا. فقد حدث أن وزير سلطان المغرب الأقصى جاء إلى القاهرة سنة ٦٩٨ هـ - ٢٩٨ م فى طريقه إلى الحج(٧١). وبينما كان الوزير مجتمعًا بالأمير سلار نائب السلطنة، والأمير بيبرس الجاشنكير دخل عليهم أحد الكتاب النصارى، فرأى الوزير المغربى على مظهره ما أشعره بأنه رجل له خطره فى الدولة فقام لتحيته. ولما سأل عن هويته عرف أنه كاتب نصرانى، فانفعل الوزير لما وصل إليه النصرانى من مكانة فى الدولة، فبادر بالمثول فى حضرة السلطان الناصر، وتحدث إليه فى شأن أهل الذمة وما هم عليه من ذل وهون فى بلاده، حيث لا يمكنون من الخدمة فى الجهات السلطانية ويحرم عليهم ركوب الخيل. وأنكر الوزير المغربى على السلطان ما شهده من تلك المعيشة المطمئنة التى يحياها النصارى واليهود بمصر(٧٢). ويقال إنه سعى فى هدم الكنائس، ولكن قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد حال دون قيامه بذلك العمل.

اهتمام المغرب بأحداث مصر

ولموضوع الصلات السياسية بين مصر والمغرب وجه آخر، وهو أن دول المغرب من ناحيتها لم تتأخر عن مشاطرة مصر فيما تحرزه من انتصارات أو تجوزه من أزمات، مشاطرة من نفس النوع المملوكى. ففى أثناء صراع المماليك ضد المغول والصليبيين.. ظلت تلك الدول ترقب الحوادث فى اهتمام، فأحدث مثلا انتصار

المماليك فى معركة مرج الصفر ٧٠٢ هـ ـ ١٣٠٣ م رنة فرح فى دول المغرب، وأرسل الناصر محمد إلى أبى يعقوب المرينى هدية بتلك المناسبة كان من بينها خمسة عشر مملوكًا من التتار الذين أسروا فى تلك الموقعة(٧٣).

كذلك وقفت الدول المغربية من غارة تيمورلنك التى اجتاحت الشام فى عهد برقوق نفس الموقف، الذى اتخذته قبلا من ترقب الحوادث وعقد الآمال على مصر. ويبدو ذلك جليًا من المكاتبات التى تبودلت بين كل من سلطان تونس وسلطان المغرب الأقصى والدولة المملوكية، إذ أنه لما انتهت تلك الغارة المغولية إلى ما انتهت إليه من عقد الصلح، كتب السلطان المتوكل على الله أبو يحيى الحفصى (٧١٧/ ٧٤٧ هـ ـ ١٣١٨/ ١٣٤٦ م) إلى السلطان برقوق كتابًا جاء فيه «ولما جاءنا بنصركم البشير، وطلع من ثنية الهناء بأكمام السرور إلينا البشير، هززنا له أعطاف الارتياح، وتلقينا منه وارد التهانى والأفراح. . ورأينا أن تهنئتكم به من فروضنا المؤكدة، وعهودنا المجددة». كما كتب له بما صادفته الجيوش التونسية من نصر فى مهاجمتها لسواحل إسبانيا، واستيلائها على جزيرة غودش(٧٤)، وهنأه أيضًا بعودته إلى السلطنة. وجاء رد برقوق على هذا الكتاب «الذى عبر لفظه عن معنى المحبة، وقرب شاسع الذكر وإن بعد المدى بين الأحبة»، وقدم له الشكر على تهنئته المزدوجة من وقف تيار التتار والعودة إلى السلطنة.

وجاءت رسالة المرينى إلى برقوق تحمل ـ فى جملتها ـ نفس المعانى التى تضمنتها رسالة صاحب تونس، ولكنها امتازت بأن صاحب فاس ذكر أنه عقد النية على اتخاذ خطة إيجابية فى مساعدة برقوق فى محنته التترية، فقال: «ولقد كنا حين سمعنا رأيه (تيمورلنك) الذى غلبه الله عليه، وما أضمر لخلق الله من الشر الذى يجد فى أخراه ظله يسعى بين يديه، عزمنا على أن نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضا، ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحمد فى إمداده المناصرة ويرتضى»(٧٦). ومن يدرى فلعل المرينى كان صادق العزم فيما نوى، إلا أنه ليس هناك من الأدلة ما يقوم على شروعه فى الاستعداد والتجهز،

كما فعل بيبرس مثلا لمساعدة المستنصر الحفصى فى مدافعة الحملة الصليبية الثامنة، والراجح أن ما ذكره المرينى إنما هو من قبيل المجاملة والتقرب. كذلك امتاز رد برقوق أيضًا بالإسهاب فى بيان التفاصيل الخاصة بمحاربة التتر، وتبرير الحال التى أدت إلى استفحال خطرهم، ومما قاله فى هذا الصدد أن ما روع بلاد السلطنة المملوكية «من هذه النقمة لم يكن عن سوء تدبير»[٧٧].

بعض أوجه الشبه بين نظم مصر والمغرب

ويأتى كذيل للعلاقات السياسية التى استعرضت فى هذا القسم، نقطة خاصة بالنظم الإدارية، فكثيرًا ما ذكر العمرى فى مسالك الأبصار أوجه شبه بين النظم والوظائف فى مصر ودول المغرب. وقد يقال إن ذلك نتيجة اقتباس المغرب للنظم المملوكية، وربما يكون فى ذلك بعض الصدق، إلا أن قبول هذا الرأى على علاته أمر يحتاج إلى مراجعة؛ فإن ما دعا العمرى إلى عقد المشابهة بين النظم المغربية والمملوكية، إنما هو محاولة منه لتقريب فهمها وإدراكها على ضوء ما هو موجود فعلا بمصر. والحاصل أن ما هنالك من تشابه بين نظم الدول الإسلامية ليس إلا اتفاقًا فيما انتهت إليه القواعد، التى ينبغى أن تقوم عليها الدولة الإسلامية من تطور فى ذلك العصر. وإذا جاز أن يكون ثمة اقتباس فى نظم الدول الإسلامية بشمالى إفريقية؛ فالراجح أن مرد ذلك إلى أيام الدولة الفاطمية حين سيطرت تلك الدولة على مصر وبلاد المغرب[٧٨].

وكل ما يمكن ملاحظته بوضوح من آثار الدولة المملوكية بدول المغرب وجود جماعة من أمراء المماليك فى حاشية سلطانى المغرب الأقصى وتونس، ومصدر هؤلاء فيما يبدو ما كان يرسله سلاطين مصر فى هداياهم إلى بلاد المغرب من المماليك[٧٩]. والراجح أنهم وصلوا إلى مراتب الإمارة فى تلك البلاد، أو أنهم كانوا ممن يذهبون إلى بلاد المغرب فى أمر من أمور الدولة، فيستقرون بها، ويجعلون منها وطنًا ثانيًا لسبب من الأسباب، وربما كانوا من المنفيين أو المغضوب عليهم. وهناك بعض الحوادث الدالة على التجاء بعض المصريين إلى المغرب؛ ليتخذوا منه ملاذًا مما يلقونه فى مصر من أحداث.

ومن هذا القبيل قصة علاء الدين أيدغدى الشهرزورى[٨٠] وجماعته من أولاد الشهرزورية الذين انقلب عليهم السلطان بيبرس البندقدارى، وقتل زعيمهم الأمير يعقوب، ونفى بقيتهم إلى بلاد المغرب[٨١]، فاتصل أيدغدى زعيم تلك الطائفة المنفية بخدمة أبى يعقوب يوسف سلطان بنى مرين، وسرعان ما وثق به واستخدمه فى الوزارة. وقد جاء أيدغدى إلى مصر فى عصر الناصر محمد سفيراً من قِبَلِ السلطان المرينى، فصفح عنه الناصر وأنعم عليه، وسمح له بالتوجه إلى الحجاز[٨٢]. ويظهر أيضًا أنه كان من مشروعات السلطان بيبرس الجاشنكير الاعتصام ببرقة أو بلاد المغرب، عندما أيقن أن الأمر قد تمكن للناصر محمد سنة ٧٠٩ هـ ـ ١٣٠٩ م[٨٣]. كذلك فر الأمير سيف الدين خاصبك مِنْ وجه الناصر إلى المغرب، ولكن قبض عليه وأعيد إلى مصر سنة ٧١٦ هـ ـ ١٣١٦م[٨٤]. وقد لجأ إلى مثل تلك الوسيلة أيضًا جانى بك حبيب العلائى الاينالى أحد أمراء الطبلخانات عندما نكبه السلطان خشقدم، فاستقر بالمغرب حتى وفاة هذا السلطان المملوكى فعاد إلى مصر[٨٥].

اللائذون بمصر من المغاربة

ويقال مثل ذلك بصدد اللائذين بمصر المملوكية من المغاربة الذين وجدوا بالبلاد المصرية مكان أمْن وطمأنينة وسلام. وسبب ذلك ـ فضلا عما للسلطنة المملوكية من مركز فى العالم الإسلامى ـ ما كانت تعانيه دول المغرب من عوامل الاضطراب والإحن. ومن أمثلة ذلك خلع سلطان تونس زكريا أبى يحيى المعروف باللحيانى، الذى قصد إلى مصر سنة ٧٠٩ هـ طالبًا العون من الملك الناصر. وعقب عودته من الحج سنة ٧١٠ هـ أمده السلطان بتجريدة عسكرية فيها مائة مملوك بقيادة أمير عشرة. وقد انضمت إلى الحملة المصرية طوائف كثيرة من عربان برقة وإفريقية، وتمكن اللحيانى من دخول تونس تحت الصناجق المصرية، وطرد الدعى أبا البقاء خالد عن العرش، وأعلن نفسه نائبًا على تونس من قبل سلطان مصر، وقطع ذكر المهدى من الخطبة، وخطب للناصر على منابرها رغم استنكار أهله لذلك[٨٦].

لكن اللحيانى لم يهنأ طويلا بما وصل إليه، إذ طمع صاحب بجاية، أبو بكر عبد الرحمن فى عرش تونس، فزحف إليها ولم يجد اللحيانى مناصًا من التوجه إلى السلطان المملوكى مرة أخرى. فكتب إليه يسأل إنقاذه مما حل به، فأسعفه الناصر بتجريدة عسكرية على رأسها الأمير طقصباى الحسامى وبدر الدين بيلبك المحسنى، تجيء به إلى مصر مع أهله وولده[٨٧]. ونزل بالإسكندرية سنة ٧١٩ هـ ـ ١٣١٩ م، حيث أمر الناصر بإنزاله فى دار السلطنة هناك، وأسنى جرايته وإقطاعه، فقرر له مائة درهم يوميًا. وقد ذكر ابن بطوطة[٨٨] خبر وجوده بالإسكندرية عند مقدمه إليها، كما لقى أبناءه عبد الواحد ومصرى واسكندرى. ويرجح أن الولدين الأخيرين قد اتخذا هذين الاسمين على أثر مجيئهما إلى مصر. على أنه فى ذى القعدة ٧٢١ هـ. . وردت المكاتبات من أهل تونس إلى اللحيانى، يعلنون فيها هرب السلطان المغتصب أبى بكر واجتماعهم على طاعة اللحيانى، وينتظرون عودته لاسترجاع ملكه[٨٩]، ولكن هذه الدعوة لم تستثر اللحيانى إلى اتخاذ خطة إيجابية لتنفيذ مشروعه. ولعل السبب فى ذلك أن الناصر لم يكن مستعدًا للمغامرة برجاله مرة ثانية فى تلك الجهات، بعد أن أثبتت المحاولة الأولى قصر نجاحها، كذلك ربما آثر اللحيانى العافية واصطناع الزهد فى هذه المرة بسبب مرضه، الذى أدى إلى موته سنة ٧٢٧ هـ ـ ١٣٢٦ م[٩٠].

كذلك حدث فى سنة ٧٣٢ هـ ـ ١٣٣٢ م أن حاول بعض أفراد بنى عبد المؤمن وأشياعهم من أولاد ابن الحكيم ارتجاع ملكهم الزائل الذى تأدى إلى بنى حفص، فقمع أبو بكر المتوكل (٧١٨/٧٤٢ هـ ـ ١٣١٨ ـ ١٣٤٦م) الفتنة، وبعث بمن قبض عليه من الثائرين إلى الإسكندرية، حيث تقبلهم المجتمع المملوكى وعاشوا به عيشة راضية[٩١].

وفى سنة ٧٣٦ هـ ـ ١٣٣٦م حاول أحد أفراد البيت المرينى، واسمه أحمد بن عثمان ـ وقد نشأ فى القاهرة ـ أن يذهب إلى المغرب لاستخلاص بعض أملاك أبيه من السلطان أبى الحسن المرينى، فقبض عليه فى تونس ثم أطلق سراحه ورجع إلى القاهرة. ثم عاود الكرة مرة أخرى وأعلن العصيان على السلطان،

ولم تكن محاولته الثانية أكثر نجاحًا من الأولى، فقبض عليه فى هذه المرة ونفى إلى الأندلس(٩٢).

من ذلك أيضًا شفاعة السلطان برقوق لدى صاحب تونس ليأذن لأسرة ابن خلدون فى اللحاق به فى مصر، إذ أن صاحب تونس قد عوقها بسبب ما كان بينه وبين ابن خلدون من كراهية. فأدت شفاعة برقوق إلى السماح لها بركوب البحر إلى مصر سنة ٧٨٨ هـ - ١٣٨٦ م، إلا أن الأقدار لم تشأ لابن خلدون أن ينعم بأسرته، إذ انقلبت السفينة ولم ينج منها إلا رسول صاحب تونس الذى تلقاه برقوق بما يليق بمثله من الكرامة والإنعام(٩٣).

وفى سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م جاء إلى مصر الأمير يوسف بن على بن غانم أمير أولاد حسين من عرب العقل، ناجيًا بنفسه من سخط السلطان أبى العباس المستنصر المرينى (٧٨٩/ ٧٩٦ - ١٣٨٧/ ١٣٩٣ م)، يبتغى الوسيلة لدى السلطان برقوق؛ ليتشفع فيه لدى ملك بنى مرين، فلما وجد برقوق غائبًا عن مصر، يدير الأمر للقضاء على الفتنة التى أثار منطاش نقعها فى الشام ذهب إلى قضاء الحج، وعند عودته ألفى السلطان قد حضر. وقام ابن خلدون بتقديمه إلى السلطان، فبث إليه الأمير شكواه وتقبله السلطان بقبول حسن، وحمله إلى ملك بنى مرين هدية طيبة. وانتهت تلك الشفاعة بتحقيق ماصبا إليه الأمير المغربى من العفو والمغفرة، وشرع سلطان المغرب فى إعداد المكافأة للسلطان المملوكى، وعزم على إنفاذها مع يوسف بن على هذا، لكن الأمير لقى حتفه سنة ٧٩٦ هـ - ١٣٩٣ م(٩٤).

بيد أن مصر لم تكن ملجأ للفارين أو المغضوب عليهم فقط، وإنما قصدتها طوائف من عامة أهل المغرب يبتغون فيها بسطة العيش وسعة الرزق، وقد قال ابن خلدون فى هذا الصدد «ويبلغنا لهذ العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى فى عوائدهم ما يقضى منه العجب، حتى إن كثيرًا من الفقراء بالمغرب ينزعون من الثقلة إلى مصر لذلك، ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها. ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار فى أهل تلك

البلاد على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم، وليس كذلك، وإنما هو لما نعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار»[٩٥].

لذلك أصبحت مصر وطنًا ثانيًا لكثير من المغاربة، حيث حلا لهم المقام فى التكايا والخوانق والزوايا والاندماج فى سلك الطرق الصوفية، يصطنعون آيات التقى ومظاهر النسك، ومنهم من كان يلتحق بخدمة الحرمين، كما اشتغل البعض بصناعة التنجيم وضرب الرمل[٩٦]. وتنبأ أحدهم للسلطان قطز فى حياة أستاذه السلطان أيبك بما سيحدث له مع التتار من أمور، تنتهى بكسرتهم على يده آخر الأمر[٩٧]. وما انفك كثير من أهل الريف المصرى يعتقدون فى براعة المغاربة واقتدارهم فى التنجيم وضرب الرمل. كذلك قرب السلطان جقمق شخص عثمان المغربى وأدنى مجلسه؛ لما توسمه فيه من الصلاح والخير بحيث صار وجيها مقبولا فى شفاعاته وحوائجه لدى السلطان[٩٨]. واحترف بعضهم صناعة الأشياء الدقيقة التى كان يتقنها أهل المغرب لبيعها فى الأسواق[٩٩]. واشتهر فى عهد قايتباى الأستاذ المغنى الموسيقى محمد، المعروف ببرقوق التونسى، الذى برع فى الغناء والإنشاد حتى ذاع صيته، واكتسب شهرة واسعة فى مصر[١٠٠]. ولجأ فريق آخر إلى الارتزاق عن مثل هذه الطرق الرخيصة فادعوا العلم والمعرفة، وأخذوا «يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك»[١٠١].

اللجوء السياسى

وقد قصد مصر أيضًا كثير من رجال المغرب، ممن تجهمت لهم ظروف الحياة السياسية ببلادهم؛ علهم يجدون بالبلاد المصرية ما يعوضهم بعض آمالهم المفقودة. ومن أمثلة ذلك وزير تونس محمد بن تافراكين، الذى استبد مدة بشئون الدولة الحفصية حين كان حاجبًا للسلطان المتوكل أبى بكر؛ وذلك أنه لما اندرجت تونس تحت لواء بنى مرين، كبح أبو الحسن المرينى جماح ابن تافراكين، ففر لائذا بالأعراب لمحاولة انتزاع الأمر من بنى مرين. ولكنه أخفق فى مسعاه، ففرّ إلى الإسكندرية سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٨م. ولما عادت تونس إلى الحفصيين خاطب ملكها الفضل ـ سلطان المماليك وقتئذ ـ فى أمر ابن تافراكين، وأظهر

الناصر حسن استعداده للتحكيم فى هذا الموضوع. وقد استطاع ابن تافراكين أن يذهب للحج، ثم يعود إلى تونس حيث أسقط سلطانها الفضل، وولى بدله أخاه أبا إسحق، واستبد بأمور الدولة مرة أخرى»[١٠٢].

وفى عهد السلطان الأشرف شعبان، جاء إلى مصر عبد الحليم المرينى، صاحب سجلماسة، الذى نازعه أخوه عبد المؤمن على امتلاكها، فغلبه عليها وصرفه إلى المشرق ليتخلص منه، فأكرم الأمير المملوكى وفادته، ووسع جرايته، وأدر لحاشيته الأرزاق، ثم أعانه على الحج، واستمر متقلبًا فى أعطاف النعمة المملوكية حتى قضى نحبه سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م. وكذلك قدم إلى مصر أيضًا محمد بن الحكم المرينى، الذى نصبه عرب المعقل حاكمًا على سجلماسة، فلما لم يستتب له الأمر بسبب ظهور أحد الطامعين فى الحكم، توجه إلى المشرق للحج، واستقر بمصر، وظل بها حتى مات سنة ٨١٠ هـ ـ ١٤٠٧ م[١٠٣].

التراسل والمهاداة بين سلاطين مصر والمغرب فى موسم الحج والمناسبات

وقد كان من مظاهر العلاقات بين سلاطين المماليك ودول المغرب أيضًا، وفود جماعات الحاج كل سنة إلى القاهرة، وإقامتهم بها مدة قبل التجهز للسفر إلى الحجاز. ولهذا كان ملوك الدول الإسلامية بشمالى إفريقية يعملون على التقرب لحكام مصر حتى يتيسر لرعاياهم وسائل الحج. وقد هيأت فرصة موسم الحج مجالا للتراسل والمهاداة بين حكام المغرب وسلاطين مصر، وحرص ملوك المغرب على نعت السلطان المملوكى فى رسائلهم، بأنه صاحب سبل القبلتين وخادم الحرمين الشريفين، اعترافًا منهم بنفوذ السلطنة المملوكية على الحجاز[١٠٤].

على أن اضطراب أحوال الدول بالمغرب أدى إلى انقطاع ركب الحاج المغربى عن مصر زمنًا بسبب الحروب، وفساد السابلة، وخشية الحجاج من التعرض لسطو البدو وغوائلهم. حتى إذا سيطر بنو مرين على زمام الأمر بالمغرب كله منذ عهد أبى يعقوب يوسف، تتابعت وفود الحجاج على مصر سنة بعد سنة، إذ ألقت سطوة هذا السلطان ـ ومن أتى بعده من سلاطينهم الأقوياء ـ الرعب والهيمنة فى قلوب الأعراب «فمشت الرفاق إلى الآفاق[١٠٥]». وقد اهتم سلاطين المغرب بإعداد

ركب الحاج اهتمامًا زائدًا؛ إذ اعتبروه وسيلة للدعاية لملكهم، فجعلوا مع الركب دائمًا حامية عسكرية تحميه من أخطار الطريق، وقاضيًا ليفقه الحجاج ويفصل بينهم. ولقى الحجاج المغاربة فى ظعنهم وإقامتهم من سلاطين المماليك كل رعاية وإكرام، فخصصوا لهم مكانًا لإقامتهم فى الميدان الكبير الناصرى بموردة الخميس(١٠٦). واختص كبارهم من الوزراء والأعيان بالإقامة فى مكان ممتاز يختاره لهم السلطان، حيث يلقون من كرمه وجراياته فيضًا عميقًا، ويمكثون على هذا الحال ريثما يتهيأ ركب الحاج المصرى والمحمل فيلحقون به. وجرت العادة فى أغلب الأحايين أن يعين لهم السلطان المملوكى أحد أمرائه؛ لمرافقتهم إلى الحج(١٠٧). ويتبين من قائمة الهدية التى أرسلها أبو الحسن المرينى إلى الناصر محمد ـ عندما بعث ابنته للحج فى رمضان سنة ٧٣٨ هـ ـ ١٣٣٧م ـ مدى الاهتمام بتجهيز الهدايا، واصطناعها وسيلة للتقرب إلى سلطان مصر، واسترضائه لتسهيل شئون الحجاج من المغاربة؛ إذ اشتملت تلك الهدية على خمسمائة من عتاق الخيل، وما يستطرف من أسلحة المغرب وأكسيته وبرانسه وعمائمه. ويقال إنه ذهب لحمل هدية صاحب المغرب من الإسطبل السلطانى ثلاثون قطارًا من بغال النقل سوى الجمال. وخرج المهمندار بنفسه للقاء ابنة السلطان المرينى، وأنزلها بقصر القرافة، وفرّق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم، كما جرت بذلك العادة، ولم يحتفظ لنفسه إلا بما اصطفاه من أصناف اللؤلؤ والجوهر.

ومن الأشياء الطريفة التى وردت مع تلك الهدية، مصحف بعث به السلطان المرينى إلى الحرم المكى، وقد نسخه السلطان بيده وتأنق فى تجميله فصنع له صندوقًا خاصًا من خشب الأبنوس والعاج والصندل، وغشاه بصفائح الذهب، ونظم بالجواهر واليواقيت، وغطى ذلك كله بكساء من الحرير(١٠٨). وفى نسخ ذلك المصحف بيد السلطان آية على معتقد المسلمين فى تلك العصور، بأن مثل هذا العمل، إنما يقربهم إلى الله زلفى. وتلك الفكرة بعينها موجودة لدى سلاطين المماليك، الذين اهتموا بتلك الناحية أيضًا، وفيما خلفه قايتباى والغورى وغيرهما من سلاطين المماليك دليل على ذلك. ولم يكتف المرينى بتلك الهدية،

بل بعث بالأموال مع الركب لشراء الضياع بالمشرق، ووقفها على القراء المالكية وغيرهم من أهل الخير والصلاح(١٠٩). ورتب الناصر للحرة ابنة السلطان وحاشيتها ما يحتاجون إليه من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة والأرز وحب الرمان والتوابل وفانوسيات الشمع ما يجل عن الوصف. كما حمل إليها سبعين ألف درهم على سبيل النفقة فى أمور أُخر. وعمت خلع السلطان جميع من كان معها، حتى بلغت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة. وقد عين لها السلطان أميرين لتجهيزها بما تحتاج إليه فى سفرها من الأزودة المختلفة، وندب للسفر معها جمال الدين، متولى الجيزة، وأمره أن يرحل بها فى ركب خاص سبق المحمل المصرى، كما كتب لأميرى مكة والمدينة بخدمتها ورعايتها على أحسن وجه مرضى(١١٠). وعند عودتها من الحج.. بعث الناصر مع الأميرة الهدايا الباذخة إلى والدها، وقائمة تلك الهدايا موجودة فى ملحق رقم ١ بأخر الرسالة.

وليس معنى هذا أن ركب الحاج كان يحمل من بلاده مثل تلك الهدايا الفاخرة دائمًا، وإنما الذى حدث فى ركب الحرة ابنة السلطان المرينى سنة ٧٣٨ هـ، كان مناسبة فذة أراد أن يظهر فيها المرينى أبهته وجلاله، بعد اتساع نفوذه وخضوع جميع بلاد المغرب لسلطانه، كما أراد السلطان المملوكى أن يرد عليه بما هو أهل له من التقدير، ويظهر له ما عليه السلطنة المملوكية من روعة وبهاء. ويوجد فى كثير من المراجع وصف ركب الحاج المغربى، وما أتى به من الهدايا فى مختلف السنين(١١١).

هذا.. ولم تقتصر المهاداة على مواسم الحج فحسب، بل اتصلت بين تلك الدول ومصر فى بعض المناسبات السياسية التى سبقت الإشارة إليها. كذلك بعث الظاهر برقوق رسوله الأمير فطلوبغا لشراء بعض الخيول الكريمة من بلاد المغرب. وربما كان من العوامل التى وثقت الصلة بين برقوق، ومن قبله الناصر محمد بسلاطين المغرب شغفهما الزائد بالخيل(١١٢). وقد وفد مع فطلوبغا إلى مصر رسل ملوك المغرب، الثلاثة يحملون الهدايا، فقدم رسول صاحب فاس «ثلاثين فرسًا، وبغلتين فيها ثمانية بقماش ذهب وبقيتها بقماش دون ذلك، وثلاثين سيفًا

محلاة بذهب، وثلاثين مهمازًا من ذهب وقماشًا وغيره». وقدم رسول صاحب تلمسان أربعة وعشرين سيفًا محلاة بالذهب، وأربعة عشر مهمازا من ذهب، وكثيرًا من القماش وغيره. وقدم رسول صاحب تونس ستة عشر فرسًا ملجمًا بذهب، وقماشًا كثيرًا»(١١٣). ويمكن أن يستنتج من إيراد الهدايا السابقة على تلك الصورة قوة الأواصر، التى تربط بين كل من دول المغرب ومصر المملوكية فى ذلك الوقت. وعلى هذا الأساس يكون صاحب المغرب الأقصى أكبرهم منزلة وأكثرهم قربى، ويتلوه صاحب تلمسان، ثم صاحب تونس.

التجارة بين مصر والمغرب

على أن الفوائد التى تتتبع المهاداة وصفو العلاقات بين مصر المملوكية ودول المغرب لم تكن قاصرة على تسهيل الطريق للحجاج فحسب، وإنما كان لها هدف نفعى آخر يتصل بالتجارة المتبادلة بين الناحيتين. وإذا كانت المراجع المتداولة هنا لا تحتوى على شىء ذى غناء فى موضوع التجارة.. فإن كل ما ورد بها من إشارات مقتضبة إلى وصول التجار المصريين إلى بلاد المغرب، أو وصول تجار المغاربة إلى مصر، دليل كاف على قيام التجارة بين البلدين واهتمام ملوكهما بحسن العلاقة.

لقد جاء ابن خلدون إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ ـ ١٣٨٢ م على ظهر سفينة مصرية، أتت إلى ميناء تونس للتجارة(١١٤)، كما ذكر ابن خلدون فى تاريخه أيضًا أن السلطان أبا تاشفين ملك تلمسان استطاع القبض على أبيه أبى حمو سنة ٧٩٥ هـ ـ ١٣٩٢ م، وسرحه إلى المشرق لقضاء فرضه، وأركبه فى سفينة لبعض تجار القبط المترددين على تلمسان لحمله إلى الإسكندرية(١١٥).

وكانت الخيول والزيوت والمصنوعات الدقيقة أهم ما يشحن به المغاربة سفنهم إلى مصر، كما أن المنسوجات الحريرية والكتانية كانت من أهم السلع المصرية التى تصدر إلى المغرب. ويظهر أن طائفة التجار المغاربة التى مارست الإتجار بالسلع المصرية قد نالت ثراء عريضًا بالنسبة لغيرها من التجار. ويؤخذ هذا من قول ابن خلدون «إن تجار المغاربة إلى المشرق ثروتهم بعيدة لبعد الشقة وغلو

أسعار بضائعهم»[١١٦] وكان الطريق البحرى هو الطريق المختار للتجارة بين مصر وتلك الدول. ويلتزم تجار المغاربة شأن غيرهم من تجار البلاد الأخرى دفع مكس عند دخولهم ميناء الإسكندرية، يقدر بعشر ما لديهم من البضائع والسلع[١١٧].

وطالما تعرض تجار المغاربة فى طريقهم لمصر إلى مخاطر من ناحية الفرنج؛ خاصة عندما تحولت الفكرة الصليبية إلى محاولة لخنق التجارة المملوكية[١١٨]. ومن أمثلة ذلك ما ذكره المقريزى فى سنة ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥م من اعتداء الفرنج على سفيتين للمغاربة قادمتين إلى الإسكندرية وإغراقهما. ومما يستحق الذكر فى روايته لحادث الغرق أن الفرنجة قد أغاروا على السفينة الثانية على مقربة من الإسكندرية، وبعد قتال بين الطرفين أخذ الفرنجة ما فى السفينة المغربية من بضائع، واضطر المغاربة إلى اللحاق بالبر «وأهل الإسكندرية يرونهم فلا يستطيعون إغاثتهم»[١١٩].

العلاقات الثقافية بين مصر ودول المغرب

ولم تكن مصر المملوكية محور الارتكاز السياسى فى العالم الإسلامى فحسب، بل صارت أيضًا موئل التفكير الإسلامى فى المشرق والمغرب أيضًا، ولاسيما بعد أن أصبحت موطن الخلافة، وغدا البلاط المملوكى قمينًا بأن يصبح مثابة رجال الفكر؛ لما اشتهر به من رعاية للعلوم والآداب؛ إذ وطّأ السلاطين أكنافهم للعلماء والأدباء وأغدقوا عليهم الصلات والإحسان. وقد زاد تلك المكانة الثقافية بمصر وجود الأزهر أكبر جامعة إسلامية، فكنت تراه يموج بطلاب العلم من الشام والأندلس والمغرب والحجاز وغيرها من الأقطار الإسلامية، هذا إلى جانب المدارس التى قامت فى جنبات المساجد، حيث كان يتلقى فيها الطلاب العلوم الدينية.

وقد جاء فى كتب التراجم، مثل: «الدرر الكامنة» و«الضوء اللامع» خبر كثير ممن رحلوا إلى مصر لتلقى العلم فى الأزهر أو للاستزادة من علمائه. وقد فضل بعضهم العودة إلى بلاده بعد أن يأخذ قسطه من التعليم، فنَبُهَ ذكره هنالك، فيما

آثر البعض الآخر الإقامة بمصر أو بعض بلاد السلطنة المملوكية. وبرز كثير منهم فى القراءات وفقه المالكية؛ نظرًا لانتشار هذا المذهب فى بلاد المغرب، وقاموا بتدريسه فى المدارس والخوانق والزوايا. وقد حظى أحد العلماء المغاربة، وهو محمد بن تازمرت المغربى، برعاية الناصر محمد بن قلاوون، فسمح له بالوعظ والتدريس فى الجامع الأزهر، وكثر تلاميذه ومحبوه حتى إن الناصر إذن له بمفرده أن يستمر فى تدريسه، عندما منع الوعاظ والقصاص الذين عارضوه من المصريين، من مواصلة مجالسهم فى الجامع الأزهر سنة ٧٣٨ هـ - ١٣٣٧م[١٢٠].

كذلك لقى الفقيه المغربى محمد بن أحمد بن مرزوق التلمسانى لدى السلطان الأشرف شعبان من التلطف والتوسعة فى الجراية، ما لم يلق مثله فى بلاط أبى الحسن المرينى، أو ابنه أبى عنان، أو صاحب إفريقية ممن تقلب فى كنفهم قبل ذلك[١٢١]، وظل ينعم برعاية السلطان حتى وفاته سنة ٧٨١ هـ - ١٣٧٩م. ومن هذا القبيل أيضًا مجىء فقيه مالكى، يدعى محمد بن الحاج الفاسى المغربى للاستزادة من العلم، فسمع الموطأ من الحافظ تقى الدين عبيد الأسعردى، وصنف كتابًا سماه «المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات»، وفرغ من تأليفه فى محرم ٧٣٢ هـ - ١٣٣١م[١٢٢]. وأهمية هذا الكتاب فى أنه يلقى ضوءا على كثير من البدع التى تفشت فى المجتمع المملوكى، وأودع المؤلف فى كتابه الخطة العلاجية لهذه المعايب. ومن الأدلة على مكانة مصر العلمية فى ذلك الوقت شهادة أبى عبد الله محمد بن عمر، المعروف بابن رشيد، وهو محدث مشهور قدم إلى مصر ليتلقى العلم من فطاحل علمائها سنة ٦٨٣ هـ - ١٣٨٤، فقال إنه لا يعترف بالتضلع فى العلم بالمغرب إلا لنفر قليل عدتهم ثلاثة، أما علماء مصر «فخلق كثير»[١٢٣].

ابن خلدون فى مصر

وقد جاء عبد الرحمن بن خلدون إلى مصر لائذًا بها، مما لقيه فى معترك الاضطراب السياسى الضارب بين دول شمالى إفريقية. ووصل الإسكندرية فى عيد الفطر سنة ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢م، ثم انتقل منها إلى القاهرة فى أول ذى

القعدة، فشدهته حاضرة السلطنة المملوكية بله «حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملك، تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهر الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضىء البدور والكواكب من علمائه[١٢٤]». على حد قول ابن خلدون نفسه.

والذى يتصل بهذا الموضوع من سيرة ابن خلدون ما طرأ على مؤلفه الجليل فى التاريخ، وهو كتاب العبر، ومقدمته من تهذيب وإضافة أثناء إقامته بمصر. فقد انتهت النسخة الأولى التى قدمها للسلطان أبى العباس أحمد صاحب تونس بما كتبه عن أخبار الدول المغربية حتى سنة ٧٨٣ هـ[١٢٥]. وفى مصر عكف ابن خلدون على تنقيحه، والإضافة إليه فيما يتعلق بدول المشرق ومصر خاصة، كما تناول المقدمة أيضًا بشىء من الإضافة والتهذيب[١٢٦].

وتجب الإشارة هنا إلى أن الجزء السابع من التاريخ المطبوع ببولاق يختتم حوادثه بعام ٧٩٧ هـ - والمعروف أن ابن خلدون مات بمصر سنة ٨٠٨ هـ، فكأنه انقطع عن مواصلة الكتابة فى تاريخه زهاء أربعة عشر عامًا. إلا أننى عثرت بدار الكتب المصرية على مخطوط بعنوان «التعريف بابن خلدون» تحت (رقم ١٠٩م تاريخ)، وهو من ضمن مكتبة مصطفى باشا فاضل. ويشمل قسمًا مما ورد فى الجزء السابع من التاريخ المطبوع الخاص بسيرة ابن خلدون من نشأته وتعلمه وتقلبه فى المناصب ببلاد المغرب ومصر. وتتفق المخطوطة مع الجزء السابع اتفاقًا يكاد يكون تامًا حتى ٧٩٧ هـ، ومن ثم يستمر المخطوط فى اثنتين وأربعين صحيفة، وردت فيها حياة ابن خلدون فى مصر حتى آواخر ذى القعدة سنة ٨٠٧ هـ أى قبيل وفاته بقليل. ويتكلم هذا القسم الزائد عن ولاية ابن خلدون للدروس والخوانق، وخاصة خانقاه بيبرس، وعن فتنة الناصر يلبغا بالشام، وسعاية ابن خلدون فى المهادأة بين دول المغرب ومصر فى عهد الظاهر برقوق. كذلك تحدث المخطوط عن ذهاب برقوق إلى الشام لمدافعة التتر. والفصل الذى عقده عن اتصال ابن خلدون مع تيمورلنك أثناء أسره جزء فريد غير موجود فى الجزء الخامس من التاريخ المطبوع[١٢٧]، وتستمر المخطوطة فى سرد موجز لحياة ابن خلدون حتى ولايته للقضاء فى أواخر ذى القعدة سنة ٨٠٧ هـ.

ولهذه المخطوطة أهمية أخرى؛ إذ أنها تملأ الخوالى الموجودة بالجزء السابع، ويذكر ناسخ المخطوطة أنه نقلها عن نسخة بخط يد المؤلف. والراجح أن ابن خلدون قد كتب هذا التعريف مرة أخرى ـ غير ما ورد فى الجزء السابع ـ بإضافات مختلفة، وهو ما جاء فى هذه المخطوطة. وبرغم جودة خطها. . فإن بها أحيانًا تحريفًا وأخطاء لغوية، لكن أسلوبها لا يدع مجالاً للشك فى أنها من كتابة ابن خلدون بما فيها من جزالة وروعة سبك أحيانًا، والتواء وغموض أحيانًا أخرى. وينبغى أن يعنى القائمون بصناعة التاريخ فى مصر بنشر هذا القسم الزائد، والوارد بهذه المخطوطة كذيل للجزء السابع من التاريخ؛ استكمالا لتراث ابن خلدون.

أما المقدمة. . فقد وصلت إلى المجتمع القاهرى نسخة منها، وعكف المشتغلون بالتاريخ على دراستها، فأكسبته شهرة واسعة قبل مجيئه إلى مصر حتى إنه بمجرد أن أتى إلى القاهرة، انثال عليه طلبة العلم «يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة» على حد التعبير المتواضع لابن خلدون. وقد قام ابن خلدون بالتدريس فى الجامع الأزهر(١٢٨)، واعترف بما لعلماء مصر من الباع الطويل فى العلوم، وأشاد بفضل الذين كان يتلقى عليهم طلبة المغرب الدروس من أمثال: تقى الدين ابن دقيق العيد، وابن الرفعة، وصفى الدين الهندى، وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول.

وقد تابع علماء المغرب أخبار ابن خلدون فى مصر، وما وصل إليه من مقام ممتاز فيها، وحاول خصومه أن يهونوا من شأنه حتى ليقال إن أهل المغرب لما بلغتهم ولايته للقضاء «تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفة(١٢٩): «كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب، فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك»(١٣٠) ويكفى أن تكون تلك المقالة من خصمه حتى لا يقام لها وزن وتقدير.

ومع ما قيل من أن ابن خلدون لم يندمج فى المجتمع المصرى اندماجًا تامًا، وأنه لقى من العنت والكيد شيئا ليس بالقليل: فإنه مما لاشك فيه أيضًا أنه كون لنفسه مدرسة علمية جديدة، ممن لازموه وترددوا على مجالسه، فتأثروا بمنحاه فى

التفكير والكتابة. وممن تلقى علمه واعتنق مبادئه تقى الدين المقريزى، الذى أعجب بمقدمة أستاذه فقال عنها: «لم يعمل مثالها وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها؛ إذ هى زبدة المعارف والعلوم، ونتيجة العقول السليمة[١٣١]». وقد ظهر هذا الاحتذاء جليا فى كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة»؛ إذ شابه المقريزى أستاذه فى موضوع الكتاب، فكلاهما عالج النواحى الاقتصادية والاجتماعية، وتعدى التقليد فى طريقة العرض نفسها، وكذلك الأسلوب العلمى الذى تتخلله الاستشهادات التاريخية وأبيات الشعر وآيات القرآن[١٣٢]. وممن انتفع بعلمه أيضًا المؤرخ المحدث الحافظ بن حجر العسقلانى، والسخاوى وهو ممن ناصبوه الخصومة الحادة. وفى كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»[١٣٣] شىء من الاتجاه العلمى الذى اختطه ابن خلدون فى القرن التاسع الهجرى، وقد اقتبس القلقشندى فى «صبح الأعشى» كثيراً من آرائه التى وردت فى مؤلفاته.

ابن بطوطة في مصر

وكما استقبلت مصر فى عصر صلاح الدين رحالة مغربيًا، هو ابن جبير، الذى خلف فى رحلته «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وصفًا ممتعًا لما شهده فى الدولة الصلاحية الأيوبية ـ كذلك وفد على مصر فى عصر الناصر محمد، سنة ٧٢٥ هـ ١٣٢٤م، الرحالة المشهور محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى، المعروف بابن بطوطة. وغدت رحلته المعروفة باسم «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» سفراً ممتازاً فى الجغرافية الوصفية والأحوال الاجتماعية لما شاهده من الدول. وقد أخذت عاصمة الدولة المملوكية بمجامع هذا الرحالة، وسجل إعجابه بمصر «أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة، مجمع الوارد والصادر»[١٣٤].

وفى هذه الرحلة.. إشارات قيمة إلى بعض نواحى المجتمع المملوكى[١٣٥]. كما تتجلى قيمتها أيضًا فى وصف ابن بطوطة للبلاد الإسلامية النائية، حيث يستشف منها القارئ مدى ما وصلت إليه الدولة المملوكية فى عصر الناصر محمد ،من هيبة ونفوذ بين دول العالم الإسلامى[١٣٦]. وإذا كان كتاب رحلة ابن جبير يبدو دعاية لدولة الموحدين، تمنى فيه المؤلف- غير مرة- أن يمتد نفوذ

تلك الدولة شرقًا إلى مصر والحجاز فيمكن ـ قياسًا على ذلك ـ اعتبار رحلة ابن بطوطة كتاب دعاية للدولة المرينية(١٣٧)؛ إذ نشر الرحالة اسم صاحب المغرب، وأشاد بذكره فى الدول التى زارها من مصر والقسطنطينية إلى سيلان وجاوه والصين والأندلس والسودان.

إرسال المؤلفات إلى المغرب

وليس فى المراجع المتداولة ما يدل على نزوح علماء من مصر إلى المغرب. ولعل سبب ذلك هو أنه ليس هناك من الدوافع ما يحفزهم إلى مثل ذلك، بل ظلت مصر تمد بلاد المغرب مما ينتجه علماؤها من آثار علمية. ومن هذا القبيل مؤلف جمال الدين بن هشام الأنصارى، المعروف بكتاب «مغنى اللبيب» وقد استفاد ابن خلدون من هذا الكتاب أثناء وجوده بالمغرب، وقال عنه فى مقدمته «لا يطمع أحد فى الوصول إلى غاية العلم إلا فى القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر، يعرف بابن هشام، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل لسيبويه وابن جنى وأهل طبقتهما لعظم ملكته، وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه»(١٣٨).

كذلك ذكر ابن خلدون أن أبا عبد الله زمرك، وزير صاحب غرناطة، كتب إليه رسالة يطلب منه- وهو بالمغرب- أن يبعث إليه ما لديه من مولفات علماء مصر، وخاصة مؤلفات ابن حيان وابن عقيل وابن هشام، وهم من أخصب علماء ذلك العصر إنتاجًا(١٤٠). وقد أرسل سلطان تونس أبو فارس عبد العزيز المتوكل (٧٩٦/ ٨٣٧ هـ ـ ١٣٩٤/ ١٤٣٣م)، يستدعى ابن حجر العسقلانى إلى بلاده، فاعتذر له عن ذلك وأرسل له ما كمل من كتابه «فتح البارى»(١٤١). ومن أمثلة الكتب التى ذهبت من مصر إلى المغرب كتاب أبى عمرو بن الحاجب الذى ألفه فى فقه المالكية، وقد عكف طلاب المغرب على مدارسته(١٤٢).

التأثيرات المتبادلة فى الفنون

وليس ثمة شك فى أن التأثير المتبادل بين مصر وبلاد المغرب لم يقتصر على النواحى العلمية والأدبية فحسب، بل شمل النواحى الفنية أيضًا. فمن دراسات فلورى Flury لجامع الحاكم بأمر الله، الذى تم تجديده فى عصر الناصر محمد سنة ٧٠٣ هـ - ١٣٠٣م، تبين له أن فى زخارفه محاكاة للطراز المغربى، إذ وجد على أحد محاريبه نقش «الملك لله» بخط كوفى، مشابه لما شاع فى المغرب فى ذلك العصر. وكذلك وجد فى الزخارف النباتية بهذا الجامع مشابهة لنظائرها فى مسجد تازة، الذى بنى حوالى ذلك الوقت فى سنة ١٣٩٤م، أو فى مسجد سيدى أبى الحسن بتلمسان الذى تم تشييده عام ١٢٩٦م. وقد يعزى هذا الشبه إلى مساهمة مهندس مغربى فى تجديد ذلك المسجد الفاطمى، لكن هذا الرأى يمكن تعديله.إذا علمنا أن التشابه ليس مقصوراً على مسجد الحاكم فحسب، وإنما يتمثل فى بعض المساجد الأخرى، مما يدعو إلى القول بأن ثمة اتجاهًا لمحاكاة الطرز المغربية فى النقش والزخرفة(١٤٣). وقد تأثر المغرب أيضًا بأنواع الفنون الموجودة فى مصر، إذ كانت مصر هى الوسيط الذى نشر الفن العراقى، وخاصة الناحية الزخرفية منه، ببلاد المغرب(١٤٤).

والخلاصة أن مصر كانت منهلاً من مناهل الحضارة لبلاد المغرب، تستمد منها مصادر العلم والأدب والفن، بل أكثر من ذلك طرق الحياة ومواضعات المجتمع. وقد تأثرت تونس بما اضطرب به المجتمع المملوكى من عادات اجتماعية أكثر من غيرها. ويعزو ابن خلدون هذا إلى امتزاج ما جلبته الجاليات الأندلسية معها من ألوان الحياة «بحضارة مصر، وما ينقله المسافرون من عوائدها، فآثار الحضارة بإفريقية أكثر منهما بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول أكثر من المغرب، ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين منهم(١٤٥).

أضف إلى هذا أن المغاربة كانوا ينظرون إلى ما يشيع فى مصر من ألوان الحضارة كمثل أعلى، يبتغون احتذاءه؛ فهى قبلتهم التى يتجهون إليها. ويستدل على ذلك من آراء التجار والعلماء الذين وفدوا إلى مصر، نقلا عن ابن خلدون

إذ يقول «ولقد اختلفت عبارات من لقيناهم من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم فى الحديث عنه (مصر). سألت صاحبنا كبير الجماعة بفاس وكبير الجماعة بالمغرب، أبا عبد الله المغربى، فقلت له: كيف هذه القاهرة؟ فقال من لم يرها لم يعرف عز الإسلام. وسألت شيخنا أبا العباس ابن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك، فقال : كأنما انطلق أهله من السحاب - يشير إلى كثرة أمنه وأمنهم العواقب. وحضر صاحبنا قاضى العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان، بعد عودة من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية الرسالة النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين، فسألته عن القاهرة، فقال: «أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار: إن الذى يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التى تخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك(١٤٦)». ومع ذلك.. فإن لبلاد المغرب تأثيرها فى بعض مجالات الحياة فى مصر، وإن لم تذكر لنا المراجع إلا بعض مجالات التأثر فى الفنون.

هوامش الفصل الثانى

١ - Arnold, The Caliphate, p. 101.

٢ - Van Berchem, Titres Califiens (J. AS, Aars - avril 1907).

٣ - Wiet, Precis de l'Hist. d' Egypte p. 250.

٤ - حسن إبراهيم - النظم الإسلامية ص ١١٢.

٥ - اسم هذا المؤرخ أبو العباس أحمد الخطيب، عاش فى نهاية القرن الثالث عشر - وكتابه المخطوط المسمى (الفروسية فى مبادئ الدولة الحفصية) محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، وقد نشر منه Chobomeau مقتبسات متنوعة عن تاريخ بعض ملوك الحفصيين فى المجلة الآسيوية (سبتمبر ١٨٤٨، ومارس ١٨٤٩، ويناير ١٨٥١)، والكتاب يعالج تاريخ الحفصيين منذ انطوائهم تحت لواء ابن تومرت حتى سنة ١٤٠١م.

٦- Van Berchem, Titres Califiens, p. 293.

٧ - القلقشندى جـ ٥ ص ١٣٥.

٨ - ابن سبعين هو أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم الأشبيلى وأصله من الأندلس. وقد أنشأ طريقة صوفية خاصة، وعرف فى أوروبا بردوده على الأسئلة الفلسفية التى وجهها فردريك الثانى إلى علماء صبت حيث عاش ابن سبعين. وتوفى بمكة ١٢٦٩م (دائرة المعارف الإسلامية).

٩ - Van Berchem, Titres Califiens p. 295.

١٠ - أبو المحاسن - النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢.

١١ - القيروانى - المؤنس ص ١٢٨.

١٢ - القلقشندى - صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٣٥.

١٣ - Van Berchem, Titres Califiens p. 292.

١٤ ـ جمال سرور ـ الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ٦٣ ـ ٦٤.

١٥ ـ .Van Berchem, Titres Califiens p. 286 ، وانظر كذلك حسن إبراهيم ـ الإسلامية ص ١١٢.

١٦ ـ ابن خلدون ـ العبر جـ ٧ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

١٧ ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٣١٢ ـ ٣١٣.

١٨ ـ السلوك ـ جـ ص ٩٧٢.

١٩ ـ السلوك ـ ج ١ ص ٥٠٥ و٥٨١.

٢٠ ـ Wiet, Hist de la Nation Egyptienne, II, p 450.

٢١ ـ التعريف ـ ص ١٢.

٢٢ ـ أبو الفدا ـ جـ ٣ ص ١٣٢.

٢٣ ـ السلوك، ـ جـ ١ ص ٤٥٥ و٤٧٧. (حاشية).

٢٤ ـ القلقشندى ـ جـ ٨ ص ٧٩.

٢٥ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢، وانظر أبصار التعريف بالمصطلح الشريف ـ ص ١٢، ص ٥.

٢٦ ـ Demombynes, Masalik, p 98, (Notel).

٢٧ ـ Titres Califiens, p. 261.

٢٨ ـ التعريف بابن خلدون ـ ص ١٢٧. والتعريف مخطوطة بدار الكتب المصرية ورد فيها ما جاء بالجزء السابع من التاريخ المعروف بالعبر، وبها إضافات أخرى كثيرة سيفصل أمرها فيما بعد، وقد أورد ابن خلدون فى العبر ـ جـ ٦ ص ٣٤٦ نفس هذا الحادث فقال: «لما ملك صلاح الدين بيت المقدس، بعث عبد الرحمن بن منقذ من أمراء شيزر من حصون الشام ، فى هدية إلى المنصور بالمغرب تشتمل على مصحفين كريمين ومائة درهم من دهن البلسان وعشرين رطلا من العود وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوسا عربية بأوتارها. ووصلت إلى المغرب، وأدى الرسالة فاعتذر له عن المساعدة. إلا أنه لم يورد السبب فى الاعتذار كما جاء فى مخطوطة التعريف السابقة».

٢٩ ـ السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦.

٣٠ ـ أبو حسن على بن عبد الله بن أبى زرع، هو صاحب كتاب «روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» وقد كتب فيه أخبار المغرب منذ عهد الأدارسة حتى عصر أبى سعيد عثمان بن أبى يوسف المرينى. والكتاب من جزءين وقد نشره Tornberg (مطبعة أوبسالة ـ ١٨٣٣م)، انظر ص ١٩٨.

٣١ ـ ليس بين أبناء الشريف أبى نمى من اسمه لبيدة. وقد ذكر المقريزى أن هذا الشريف قد خلف أربعة أبناء هم عطيفه وأبو الغيث ورميثه وحميضة. والراجح أن لبيدة هو أحد الولدين الأخيرين (السلوك جـ ١ ص ٩٢٤).

٣٢ ـ ابن خلدون ـ العبر جـ ٧ ص ٢٢٦.

٣٣ ـ ابن خلدون ـ العبرجـ ٧ ص ٢٢٧.

٣٤ ـ المقريزى ـ السلوك جـ ١ ص ٩٣٤.

٣٥ ـ ابن بطوطة ـ تحفة النظارجـ ٢ ص ١٨٧.

٣٦ ـ Titres Califiens, p. 247.

٣٧ ـ ابن أبى زرع ـ روض القرطاس جـ ١ ص ٣.

٣٨ ـ العمرى ـ التعريف ص ٢٢.

٣٩ ـ القلقشندى ـ صبح الأعشى- جـ ٨ ص ٦٨٧ - رسم المكاتبة كما نقله القلقشندى «حضرة المقام العالى أمير المسلمين قائد الموحدين - ويرفع نسبه إلى عبد الحق وهو أول نسب ويقال فى كل منهم أمير المسلمين فلان.. القلقشندى جـ ٧ ص ٣٨٧.

٤٠ ـ Titres Califiens, p. 312.

٤١ ـ Mercier, Hist de l'Afrique, II, p. 196.

٤٢ ـ يقال من بين العوامل التى دفعت لويس إلى تسيير حملته إلى تونس مما زعمه بعض تجار الفرنج من أنهم أقرضوا اللليانى (لعله اللحيانى) أحد تجار تونس، فلما نكبه المستنصر الحفصى طالبوه بالمال، فماطلهم ورفعوا شكواهم إلى ملك فرنسا (ابن خلدون ـ جـ ٦ ص ٢٩٠) وقد ذكر القيروانى سببًا آخر أحنق لويس على الحفصى نفسه. وسبب نزول الفرنسيس تونس قيل إنه ذكر يومًا بحضرة المستنصر فهُضم من جانبه، وقال هو الذى أسره هؤلاء، يشير إلى الأتراك الذين كانوا بين يديه، وكان

استخدم منهم جماعة فبلغت هذه المقالة الفرنسيس، فحقد لها وعزم على غزو تونس (المؤنس ص ١٢٩).

٤٣ ـ المقريزى ـ السلوك جـ ١ ص ٥٠٢، ابن أبى الفضائل ـ النهج السديد ـ ص ١٢١ ـ ١٢٢. ووقع هذا المؤرخ عند إيراده لأخبار حملة تونس فى خطأين: أحدهما تاريخ هذه الحملة إذ جعله فى سنة ٦٦١ هـ والصحيح أنه فى ٦٦٨ هـ وقد أشار إلى ذلك الدكتور زيادة (السلوك ـ جـ ١ ص ٥٨٨ حاشية) والخطأ الثانى تسمية ملك تونس باسم محمد بن يحيى بن عبد الوهاب، وصحة الاسم هو أبو عبد الله محمد بن أبى زكريا يحيى الحفصى.

٤٤ ـ النجوم الزاهرة ـ جـ ٧ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

٤٥ ـ ابن خلدون- العبر ـ جـ ٦ ص ٢٩٣.

٤٦ ـ اندرجت برقة فى أوائل عصر المماليك تحت لواء السيادة الحفصية. فلما أدرك بيبرس أهميتها من الناحية الحربية.. عمد إلى الاستيلاء على قلاعها وبلدانها تدريجيًا ليأمن اضطراب الأعراب على الحدود. وقد تم له الاستيلاء على نواحيها فى ٦٧٢ هـ بعد معارك كثيرة، وقد سار من خلفه من السلاطين على هذه السياسة. وقد كان بيبرس يعطيها لبعض أمرائه فيجمعون العداد- وهو الزكاة- على الخيل والأغنام من أعراب تلك الجهة. وكثيرًا ما كان العربان ينتفضون على سلطة الدولة المملوكية، فيمتنعون عن تأدية العداد ويعلنون العصيان. وإذعان أعراب برقة لأوامر بيبرس دليل واضح على قوة شكيمة هذا السلطان. (النويرى ـ جـ ٢٨ ص ٣١ و٦٥ منقول من أبى الفضائل ٢١٨ ـ ٢١٩ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤١).

٤٧ ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٤٥٩ - السلوك ـ جـ ١ ص ٥٠٢.

٤٨ ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٦٥٩ - السلوك ـ جـ ١ ص ٦٠١.

٤٩ ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٦٠١ وقد انفرد المقريزى من بين المؤرخين المتداولة كتبهم فى هذا البحث بإيراد هذه الرسالة.

٥٠ ـ Demombynes, Masalik, p. 97 (note 1).

٥١ ـ ابن خلدون- العبر ـ جـ ٦ ص ٢٩٤.

٥٢ ـ زيادة ـ ابن بطوطة ص ٦.

٥٣ ـ Demombynes, Masalik, (Introd p. Ix - x).

٥٤ ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٤٤٤ حيث ورد إبلاغ بيبرس لسلاطين المغرب بتوليته السلطنة، والدرر الكامنة ـ جـ ٣ ص ٨٥ حيث جاء خبر تعزية سلطان بنى مرين فى الناصر محمد.

٥٥ ـ العمرى ـ نهاية الأدب جـ ٢٨ ص ٥٠، وكذلك ابن خلدون ـ جـ ٥ ص ٤٢١.

٥٦ ـ دهن البلسان ـ يستخرج من ثمار شجرة البلسان التى تشبه شجرة الحناء، وهى شجرة ذات أوراق كثيرة. وكان يقال إن نموها يكثر فى منطقة عين شمس وكذلك فى الحجاز أيضًا.

٥٧ ـ يقصد بذلك تهكمًا أنه استطاع أن يحقق بهؤلاء المماليك الخمسة الغرض الأكبر الذى سعى إليه ملوك المغرب وبنو نصر من رد عادية المسيحيين فى إسبانيا واسترجاع إشبيلية.

٥٨ ـ هنا تلميح تهكمى إلى رغبة الدولة المملوكية فى استرجاع بغداد واعادة الخلافة إليها منذ أيام بيبرس (الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ـ ص ٦٩) وكذلك ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٢٢٧.

٦٠ ـ يعرِّض فى هذا القول بصاحب تونس.

٦١ ـ القلقشندى ـ جـ ٨ ص ٨٦.

٦٢ ـ نص الرسالة الكامل موجود فى القلقشندى ـ جـ ٨ ص ٨٧ ـ ٩٩.

٦٣ ـ القلقشندى جـ ٧ ص ٣٩٥ ـ ٤٠٧.

٦٤ ـ ليفون أو متملك سيس هو ملك إرمينيا الصغرى ـ واسم المقصود هنا ليو الخامس. وسبب إرسال حملة الناصر إليه فى شعبان ٧٣٧ هـ - كما هو وارد فى الرسالة نقض الهدنة التى كانت بينهما، كما أن صاحب سيس قبض على عدة مماليك وبعث بهم إلى مدينة إياس حيث انقطعت أخبارهم، هذا إلى جانب قطع الجزية السنوية المقررة عليه (السلوك ـ جـ ٢ ص ٤١٨).

٦٥ ـ المختصر فى أخبار البشر ـ جـ ٤ ص ٥٣ ـ ٥٤.

٦٦ ـ صاحب الأندلس فى عصر أبى الحسن المرينى هو أبو الفضل يوسف من ولد قيس بن سعد بن عبادة وليس لشخصيته من مميزات سوى أنه شاب فاضل يجيد نظم

الموشحات، وتنم المكاتبة إليه عن النظرة المتواضعة التى كان ينظر إليه بها ديوان الإنشاء بمصر (التعريف ص ٢٦).

٦٧ ـ التعريف ـ ص ٢٣.

٦٨ ـ العمرى ـ التعريف ص ٢٣.

٦٩ ـ ابن إياس ـ تاريخ مصر جـ ٢ ص ٣٤٦.

٧٠ ـ - Van Berchem, Materiaux pour un Corpus Inscriptionem Arabicarum t. II p. 398 - 399.

٧١ ـ سلطان المغرب الأقصى فى ذلك الوقت، هو أبو يعقوب يوسف (٦٨٥/٧٠٦ هـ ـ ١٢٨٦/١٣٠٦م).

٧٢ ـ النجوم الزاهرة ـ جـ ٨ ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

٧٣ ـ النويرى ـ نهاية الأرب ـ جـ ٣٠ ص ٢٧.

٧٤ ـ جزيرة غودش هى المعروفة اليوم باسم قادش فى الساحل الإسبانى الجنوبى، ووصفت بأنها جزيرة لأنها قائمة فعلا على لسان فى البحر.

٧٥ ـ ذكر القلقشندى أن المرينى الذى كاتب برقوق هو عثمان بن أبى العباس بن أبى سالم بن أبى الحسن (جـ ٨ ص ١٠٣) وليس فى ثبت الأسرة المرينية الذى أورده Lanepoole فى كتابه Muh . Dynasties ملك بهذا الاسم، إنما السلطان المرينى الذى عاصر برقوق هو أبو فارس المتوكل (٧٩٦ / ٨١١ هـ ـ ١٣٩٣/١٤٠٨م).

٧٦ ـ القلقشندى ـ جـ ٨ ص ١٠٣.

٧٧ ـ القلقشندى ـ جـ ٧ ص ٤٠٧ ـ ٤١١.

٧٨ ـ Demombynes, Masalik (Introd). p. IxvII.

٧٩ ـ ابن أبى زرع، تاريخ روض القرطاس ـ ص ٤٢٤، والقيروانى ـ المؤنس ص ١٢٩.

٨٠ - صحح سالم الكرنكاوى ناشر «الدرر الكامنة» هذا الاسم بالسهروردى، والصواب ما هو وارد هنا كما جاء فى النويرى (نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٢٤) وابن خلدون (جـ ٥ ص ٤٣٠) وكما جاء فى متن «الدرر» نفسه.

٨١ ـ لم أعثر على سبب واضح لنكبة بيبرس لهؤلاء الشهروزية.

٨٢ ـ النويرى ـ جـ ٣٠ ص ٢٤ ـ الدرر الكامنة جـ ١ ص ٤٢٥.

٨٣ ـ السلوك ـ جـ ٢ ص ٧٨.

٨٤ ـ السلوك ـ جـ ٢ ص ١٧٠ .

٨٥ ـ ابن إياس ـ جـ ٢ ص ٣٤٨.

٨٦ ـ ابن إياس ـ جـ ١ ص ١٥٧ ، الشوكانى ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ـ جـ ١ ص ٢٥١ .

٨٧ ـ المقريزى ـ السلوك ـ جـ ٢ ص ١٩٤ .

٨٨ ـ ابن بطوطة ـ تحفة النظار ـ جـ ١ ص ٣٣٢ .

٨٩ ـ أبو الفدا ـ المختصر ـ جـ ٣ ص ١٩٨ .

٩٠ ـ ابن حجر ـ الدرر الكامنة ـ جـ ٢ ص ١١٣ - ١١٤ . وقد جاء فى تاريخ ابن خلدون (جـ ٦ ص ٣٣١) أن وفاته سنة ٧٢٨ هـ.

٩١ ـ ابن خلدون ـ جـ ٦ ص ٣٦٥.

٩٢ ـ الدرر الكامنة ـ جـ ١ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

٩٣ ـ ابن خلدون ـ جـ ٥ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠ .

٩٤ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ١٤٨ .

٩٥ ـ مقدمة ابن خلدون ـ المرجع السابق ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

٩٦ ـ السخاوى ـ الضوء اللامع ـ جـ ٥ ص ٧١، وابن إياس ـ جـ ٢ ص ١٣٦ .

٩٧ ـ النويرى ـ نهاية الأرب ـ جـ ٢٧ ص ١٢٩ .

٩٨ ـ الضوء اللامع ـ جـ ٥ ص ٧٣.

٩٩ ـ السخاوى- الضوء اللامع ـ جـ ٥ ص ٥٧ .

١٠٠ ـ ابن إياس ـ جـ ٢ ص ١٢٨ .

١٠١ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٤٥٤ ، ويلاحظ أن ما تحته خط هو خالية فى الجزء السابع المطبوع، وملئت من التعريف بابن خلدون (مخطوطة) ص ٩٩ .

١٠٢ ـ ابن خلدون ـ جـ ٦ ص ٣٦١ - ٣٦٤.

١٠٣ ـ الدرر الكامنة ـ جـ ٣ ص ١٧٦ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٣٥٩ .

١٠٤ ـ القلقشندى ـ صبح الأعشى ـ جـ ٧ ص ٣٧٩.

١٠٥ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٢٢٦ .

١٠٦ ـ السلوك ـ جـ ٥ مخطوطة باريس ٣٣٦.

١٠٧ ـ ذكر ابن إياس أن حضور الحرة زوجة ملك المغرب للحج كان فى سنة ٧٣٦ هـ، وهذا خطأ طبعًا؛ لأن مجيئها كان بعد فتح تلمسان كما تتفق على ذلك بقية المراجع. وذكر أن من جملة هديتها للسلطان ثورًا أصفر كان أعجوبة فى خلقته وتركيبه، طيف به فى شوارع القاهرة. وكان يستدفع من يطلب الفرجة عليه مبلغًا من المال كما يفعل بالسباع (تاريخ مصر ـ جـ ١ ص ١٦٩).

١٠٨ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

١٠٩ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٢٦٦.

١١٠ ـ السلوك ـ جـ ٢ ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

١١١ ـ أبو الفدا ـ جـ ٤ ص ٥٣ وابن الفرات ـ المجلد التاسع ـ جـ ١ ص ٢٢١ وابن إياس ـ جـ ٢ ص ٤٧.

١١٢ ـ السلوك ـ جـ ٢ ص ٤٣٢ (حاشية).

١١٣ ـ السلوك ـ جـ ٤ (مخطوطة باريس) ٢٦٣.

١١٤ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٤٥١.

١١٥ ـ مقدمة ابن خلدون ـ ص ٢٩٤.

١١٦ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ١٤٤.

١١٧ ـ Ziada, Foreign Relations of Egypt in the 15 th Century, p. 308.

١١٨ ـ زيادة ـ مصر والحروب الصليبية ـ ص ١١٩.

١١٩ ـ السلوك (جـ ٤ مخطوط باريس) ٣٠١ ـ ٣٠٢.

١٢٠ ـ الدرر الكامنة ـ جـ ٣ ص ٤١٤ ـ ٤١٢.

١٢١ ـ الدرر الكامنة ـ جـ ٣ ص ٣٦١ ـ ٣٩٢.

١٢٢ ـ الدرر الكامنة ـ جـ ٤ ص ٢٣٧.

١٢٣ ـ المقرى ـ أزهار الرياض فى أخبار عياض ـ جـ ٣ ص ٣٤٧ ـ ٣٥٣.

١٢٤ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٤٥٢.

١٢٥ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٤٤٥.

١٢٦ ـ ورد فى مقدمة ابن خلدون ص ١٦٧ ما نصه «ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية» وهذا دليل على أنه استقى بعض معلوماته من هذا الرجل وأضافها إلى المقدمة. ولاشك أن كثرة العلماء ووفرة المكاتب بمصر مما ساعده على هذا التنقيح.

١٢٧ ـ ابن خلدون ـ العبر ـ جـ ٥ ص ٥٣٠.

١٢٨ ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٤٥٣.

١٢٩ ـ ابن خلدون ـ العبر ـ جـ ٧ ص ٣٩٠ ـ التعريف بابن خلدون ـ ص ١٤.

١٣٠ ـ ابن عرفة هو شيخ الفتيا وإمام جامع تونس، وهو من أكبر خصوم ابن خلدون بالمغرب، ويكفى معرفة ذلك لتقدير شهادته ـ ابن خلدون ـ جـ ٧ ص ٤٤٦.

١٣١ ـ الضوء اللامع ـ جـ ٤ ص ١٤٧.

١٣٢ ـ إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٢١.

١٣٣ ـ هذا الكتاب مطبوع فى مطبعة القدس بدمشق.

١٣٤ ـ رحلة ابن بطوطة ـ جـ ١ ص ٦٧.

١٣٥ ـ ابن بطوطة ـ جـ ١ ص ١١٠ ـ ١١٣.

١٣٦ ـ انظر ابن بطوطة ـ جـ ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٣.

١٣٧ ـ قال ابن بطوطة فى مصر عن سلطان المغرب «وهناك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان ـ أيده الله تعالى ـ قد ضم الله به نشر الدولة المرينية وشفى ببركته بعد إشفائها البلاد المغربية» ابن بطوطة ـ جـ ٢ ص ١٨٧.

١٣٨ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٤. كذلك أشاد ابن خلدون بذكر هذا الكتاب مرة أخرى؛ إذ قال (ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها، واستوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة. وتكلم عن الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها، وسماه بالمغنى فى الإعراب، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ووفور بضاعته منها) (المقدمة ـ ص ٣٣٣) وكتاب «مغنى اللبيب» فى

جزءين، طبع المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨م. ولابن هشام مؤلفات أخرى، أشهرها «قطر الندى وبل الصدى» (ليدن ١٨٨٧)، و «شذور الذهب فى معرفة كلام العرب» (بولاق ١٢٥٣ هـ) والإعراب فى قواعد الإعراب (الآستانة ٢٣٩٩ هـ)، و «أوضح المسالك فى ألفية ابن مالك» (القاهرة ١٣٣٦).

١٣٩ - ولد أثير الدين أبو عبد الله بن حيان الأندلسى سنة ٦٥٤ هـ، وتوفى بالقاهرة ٧٤٥ هـ. وأشهر مؤلفاته «التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط» وهو فى ثمانية أجزاء (مطبعة السعادة ١٣٢٨ هـ)، وبهامشه كتاب آخر من تأليفه اسمه «النهر الماد من البحر»، وكتاب «تحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب» (طبع حماه ١٩٢٦م)، وكتاب «التذييل والتكميل فى شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد» (مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٦٢ فقه).

١٤٠ - ابن خلدون، العبر - جـ ٧ ص ٤٦٠.

١٤١ - الشوكانى - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - جـ ١ ص ١٩٠ كذلك طلب شاه رخ بن تيمورلنك نسخة من هذا الكتاب أيضًا فأرسلت إليه، ويقع كتاب «فتح البارى» هذا فى ثمانية أجزاء (المطبعة البهية المصرية ١٣٤٨م).

١٤٢ - مقدمة ابن خلدون، - ص ٣٢٠ - ولم أعثر على هذا الكتاب.

١٤٣ - Marçais, Les Echanges Artistique entre l'Egypte et les Pays Musalmans Occidentaux (Hesperis - 1934).

١٤٤ - Terrase, L'Art Hispano - Mauresque, p. 34.

١٤٥ - مقدمة ابن خلدون - ص ١٨١.

١٤٦ - ابن خلدون - العبر - جـ ٧ ص ٤٥٢.